الفصل الحادي عشر

فعالية حضور المرأة وإشكالياته

مقدمة حول الذّكورة والأنوثة

ما زال خلط المفاهيم بين الناس حاصل حول الأنوثة والذّكورة، فالفهم المكرس يرى أن الأنوثة والضّعف متلازمتان، كما يتم الخلط بين الذّكورة والعدوانية، فلا الوصف الأول صحيح ولا الثّاني صائب، أما آن الأوان لتخرج من الأذهان هذه التّصنيفات والمصطلحات البالية المشوهة للفهم السّليم لمعاني الأمور، الذي ما زال يرادف الحديث عن المرأة بصفات مثل (الدّونية، اللامساواة، السّطحية) فإن كان الفارق التّشريحي بين الجنسين يكرّس قوة الرّجل العضلية، فالمرأة حسب عالم النّفس التّحليلي "جونس" تعرف أن نقصانها هو ثروتها وموضوع رغبة الرّجل فيها، فلذلك تحاول أن تستثمر أكبر قوة عبر مظاهرها الجذابة، والفاتنة التي تكشف أنوثتها دون أن تكشف سرّها (حب الله، 283) حيث وتبعاً (لجاك لاكان) إن المعرفة الجنسية ليست بالضرورة مطابقة للمعرفة التّشريحية، حيث يبقى الموقع للآخر الكبير، وقوة الفالوس هي المحدد للهويّة وبذلك تنتفي الدّونية بين الجنسين، وتتحدّد القوّة تبعاً للطّاقة الأوديبية المؤثرة في مجريات النّمو النّفسي..

وهنا لا بدّ من التّوضيح الذي أورده "جونس" عبر دراسات حول المرأة من أن الأنثى ملتزمة أكثر من الرجل بقريبها، فاكتفاؤها الجنسي يصبح مقترناً بموافقته ورضاه على أخلاقيتها، أما الرجل عنده استقلالية لا نجدها عند المرأة، ولا يوازيها، إلّا إذا وجد تحت سلطة رئيس له موقف أنثوي بين رئيس ومرؤوس والمرأة تخاف زوال الرّغبة من خلال انتزاع اللذة الجنسية "Aphanisis" حيث إنّ زوال عقدة

أوديب عند المرأة لا يتم ولا يكون إلّا بإقرار نقص المرأة التّشريحي المتأتي عن الشعور بالخصاء، هذا الإقرار هو ما يمنحها شعور الأنوثة ويكون المؤسس لنمو الأنا النّفسي المتوازن بدون مشاعر ذنب.

إن صعوبة تأقلم الرجل الشّرقي مع تطور العصر والتّنازل عن حقوقه للمرأة، يأتي من نظرة الرجل للمرأة ومن مفهومه للذّكورة التّي تتميز بنرجسية القضيب، فالمرأة بالنسبة إليه غرض يقتنيه، وليست ذاتاً يتعامل معه بالتّساوي، نجد الرجل يدفع الزوجة إلى مستوى القدسية في النّظرة للمرأة – الأم، فالأم ليست مزاحمة ومنافسة للزوجة فقط، إنما تعلو بدرجات رغم علّو محبته لزوجته، وهناك الكثير من الحالات العيادية، ناجمة عن المنافسة الخاسرة نتيجة صراع ما بين الزوجة والحماة، والرجل الذي يمارس سلطته على زوجته يفرض عليها الخضوع، ولو كانت في بعض الأحيان من غير حق، فتنتقل من الوصاية الأبوية إلى الوصاية الزّوجية، لكي تديرها وتحدد مسلكها، فلذلك نجدها عرضة لكبت كلّ نزواتها خوفاً من أن تُلحق الإساءة بزوجها أو عائلتها...

إن علاقة الرجل مع المرأة، نراها تحافظ على موروثها التقليدي، وتحول دون إعطائها الحريّة بكاملها، لأن ثقافة التّعايش بين الجنسين، والتربية لتجريد العلاقة بين الطرفين من الجنس، لم تطل بعد البنية النفسية للرجل الشّرقي، من هنا تبرز المشكلة المركزية، وبوادر التّخلص منها من جراء توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل بأنه يجب التّركيز على تنمية قواسم مشتركة متعددة، وليس الاكتفاء بالبعد الخاص بالذّكورة والأنوثة، أي فقط بعد العلاقة الجنسية التي هي المطلب الكبير التي تحكم واقع العمل مع المرأة في بلادنا، والنّظرة العامة لتحررها.. حيث كل النّظريات التي بنيت على أساس دونية المرأة، مستقاة من معتقد متخيل عبر التاريخ من أنها كائن ينقصه عضو، هذا الشعور بالدّونية في مجال واحد يتجلى كرد فعل المرأة إزاء الرّجال، من أعراضه: شعور بإحساس خفي بأن المرء يتصرف كما لو كان مجرماً، وانطباع أن المرء غير جدير بالحياة، شعور بأنه يكاد يكون

غير مقبول من الآخرين، الوجل والعدوانية المرضية، هما مفعولان مباشران لشعور الدّونية. (ببير داكو، 43).

فالعنصرية التي يعاني منها المجتمع الإنساني، بدأت أولاً وفتحت الطّريق فيما هي ناجمة عن التّمييز العنصري الذي طال الإنسان منذ أن اكتشف الفارق الجنسي بين الرجل والأنثى، فهذا الفارق تعمم على كل ما هو مغاير، لينتقل من الجسد في تكوينه الدّاخلي إلى لون الجلد الخارجي، إلى الفكر على صعيد اختلاف المعتقد ثم إلى الاختلاف الإيديولوجي...

كما أن النّظرة الاجتماعية السّائدة تذهب إلى أن المرأة أكثر خضوعاً للعاطفة من الرّجل، وهذه المزاعم لم تتحقق منها أبحاث جادة تتوافر لها شروطاً موضوعية من الدّقة والضّوابط العلمية المنهجية، تلك النّظرة التي تمايز الرجل عن المرأة، من كونها تسعى إلى تجريد المرأة من عقلها بزعم نقصان كفاءاتها بحكم وظائف بيولوجية تميزها، فكانت بذلك الغربة الأولى لعقل المرأة حيث ترتب عليها سهولة في حصارها وتحجيم دورها، في مواقع العمل والإبداع والإنتاج والمسؤولية. الذي ضَخّم دور الأنثى على حساب دور المرأة، وأبرز مظاهر هذا التّضخيم المغالاة الخطيرة، في تأكيد الأمومة من خلال تصوير الحمل، وكأنه صنو للعجز الكامل عن العمل، أو في أحسن الأحوال على أنه مرافق للتّقصير في إنجاز العمل، ليأتي الحمل للمرأة كونه ينطوي على شر مقصود ليسهم بتحويل الحمل إلى فترة عدم انجاز، بحجة الحمل ومن ثم الإرضاع والأمومة، فمفاهيم الأمومة، والأنوثة، والعمل، والإنتاج هذه، يجب أن تؤخذ كوحدة متكاملة للمرأة، كونها رحماً ينجب وعقلاً يبدع ويبتكر، ويداً تعمل وتنتج، حيث إن من أبرز مظاهر اختزال وجود المرأة، يتمثل في اختزال حياتها إلى مجرد الأمومة والإنجاب ورعاية الأبناء كما أشرت ليختزل بذلك حضور المرأة إلى أنوثتها لأنها مجرد جسد جميل مثير للشّهوات، هذا الاختزال ما هو إلّا ضرب من الاضطراب النّفسي اجتماعي، الذي ينتشر في أغلب الأوساط في مجتمعاتنا بحيث توظف المرأة الأنثى كونها سلعة،

هذا الاختزال الذي يزيد من معاناة المرأة الأنثى، المغتربة عن وجودها الحيّ والمكتمل وهذا الاغتراب للمرأة في مجتمعها، يقابله اغتراب مقابل بالتّالي للرجل في بلادنا... فهل سيبقى هذا الحال قائماً لمستقبل المرأة السّورية التي ننشد ونريد...

ومن الأمور التي تدعو إلى القلق، تلك الفتاوى الدّينية المختلفة في بلاد المسلمين التي تتدخل في التّفاصيل الدّقيقة للمرأة، ووضعها في غير مكانها المناسب، هذا النمط من العنف الثّقافي والتّربوي الرّمزي والخفيّ يجد له انعكاساته ليس فقط، في ممارسات الرّجال ضد المرأة، بل الأخطر من ذلك أن المرأة تعتبره قدراً، وتتفاعل معه إلى درجة الدّفاع الخفي عنه وعن مرتكبيه، بمعنى أوضح نجد المرأة مرات تدافع عن الجلاد...

وهنا يخطر لي طرح فرضيّة وتساؤل:

إذا كان الرّجل الشّرقي يجد في تحرر المرأة انتقاصاً لفحولته تحت غطاء الشّرف، كيف لنا أن نقيس شهامة هذا الرّجل اليوم "الرّجل الشّرقي طبعاً"؟

ووفقاً لحكمة قديمة تقول: "إن التّغيير يحدث ليس بسبب مرور الزمن، لكن بسبب ما يحدث أثناء مرور الزمن".

عالم النّفس الشّهير "ب.ف.سكينر" يقول في هذا السّياق: إذا كلنا كنا شاهدين على ما يحدث في بلدنا هذه الأيام رجالاً ونساءً، فعلينا أن لا نتفاجأ بطبيعة التّغيير الحاصل، فإن أردناه غير ذلك فلكي نكون فاعلين في أحداث هذا الزمن...

مما سبق يمكن القول إن مظاهر العنف في بلادنا التي تتلقاها المرأة نتيجة للتّصنيف الدّوني لأنوثتها، هذا التّصنيف المختلف عن العالم المتحضر، حيث العنف ضد الأنثى مُدانٌ وفق المنظور الحضاري، ويلقى الدّعم والإسناد من المنظومة الحقوقية والحياة الفكرية والقيمية المكرسة في العالم المتحضر، من أن المرآة مواطنة وليست فقط أنثى.

فرغم تعرض المرأة في مجتمعاتنا إلى مختلف صنوف التّعنيف المختلفة –

جسدية ونفسية وقانونية – يبقى العنف الرّمزي هو الشّكل الأكثر ضرراً وإيلاماً كونه يجسد معاناة المرأة بأوضح الصّور، ويتم أساساً عبر وسائل التربية وتلقين المعرفة والإيديولوجيا، وهو ما يصفه "بورديو" بأنه شكل لطيف وغير محسوس من العنف، وهو غير مرئي بالنّسبة للضحايا أنفسهم، والعنف الرّمزي من سيئاته أنه يمارس بتواطؤ مع المربين والمسؤولين على التّنشئة الاجتماعية، وأشكال التواصل الاجتماعي، حيث إن التربية الذّكورية ابتداءً من البيت والتّنشئة الأولى، وما تتركه من انطباعات سيئة عن الأنثى، بالنظر إليها كمخلوق ثانوي تلقي بظلالها على الكثير من السّلوكيات اليومية المذلة للمرأة، والمدرسة تخلق من خلال مناهجها وما تبثه من معلومات حول الفروقات بين الجنسين، واستخدامها بشكل سيئ لتوجيه الطّعون ضد المرأة وأهليتها الاجتماعية.

حقاً إن العواطف متغيرة هذه حقيقة، والأفكار تتغير هذه حقيقة... الحب يكبر والكره يكبر، والحب يخفت والكره يُبدد والأفكار تتطور وتتماسك، والأفكار تتراجع إن لم تتغذّ وتُختبر... والعنف يُحبط كل طاقات الحياة...

من أكبر حالات العنف ضد المرأة، مثال عائشة: عائشة هي امرأة أفغانية عمرها 18 عاماً، قطعت جماعة من المتشددين دينياً والتابعين لطالبان "أنف هذه الصبية وأذنيها" لفرارها من أهل زوجها... فقد أهلكوها بأشكال العذاب والضرب يومياً... هذا مثال علينا تذكره حتى ولو أن عمليات التجميل التي عُملت لعائشة والجهات التي تاجرت بالقصة فيما بعد كثرت، هذا مثال حيّ للعنف باسم الدين... الذي بات شماعة لإقامة الحروب بين الشعوب وافتعال العمليات الاستشهادية من خلال انتحاريين يفتقدون لمقومات الصحة النفسية وبذلك تكون الجريمة جريمتين إنسانياً، جريمة بحق المجنى عليهم وجريمة بحق من دفع لقنص حياة هؤلاء وهو يثق بمن أوكلوه وأعدوه لمثل هذه العمليات...

هكذا العنف، بحرٌ هائج بلا شطآن، لأن العنف ظاهرة عالمية عائمة، ليس لها لون، أو مقتصرة على شعب بل تحكمها ظروف ومسببات...

إشكالات التربية الأسرية الحديثة

من الثّوابت في قناعات الناس في بلادنا العربية، أن الأسرة وقيم المجتمع المتمثل في العمل الصالح المتوافق مع مبادئ الأخلاق العامة، تعدّ من المحاذير الذي لا يقدر أحد منا على الجدل حولها، فمن الثّابت أن نمط وأشكال تعامل الأسرة مع الأبناء هو وقاية من الجريمة والانحراف للأبناء، أما في تفكك الأسرة فهو سبب لسلوك الانحراف والتّهميش في مسيرة حياة الأبناء، فدور الأسرة المتمثل بتنظيم العلاقات فيما بين مكوناتها (أب – أم – أبناء – أقرباء درجة أولى – أقرباء درجة ثانية). هو دور علائقي، فتبعاً لنمط الأسرة المحكومة بقوانين الاستقلال في مجالات الحياة من جهة، والمحكومة من جهة أخرى بقوانين التّبعية في هذه الحالات.

وهذا لا يغير في الفهم شيئاً حول مركزية الأسرة في التّنشئة الأخلاقية والمجتمعية حتى لو تغيرت علاقات الأسرة فيما بينها، فإنه يمكن تصنيف هذه العلاقات الأسرية ضمن مستويين من العلاقات:

1- علاقة الأزواج بدءاً من قرار الزواج الذي تصل مفاعيله وآثاره على العلاقات، ما بين أسرتي الزّوجين في مجالات الحياة اليومية إلى الخيارات العامة.

2- علاقة الأبناء فيما بينهم، وهذه العلاقة عموماً محكومة بصورة عامة بعلاقة الكبار منهم بالصّغار، فإن لم تحصن الأسرة الأبناء بروح المودة والتّآخي والتّعاضد، لا يمكن أن تعاش العلاقات الأسرية.

إن العامل الحاسم في هذه التربية يتمثل بما يلي:

- إحساس الأبناء بمدى وعمق اقتناع الأهل فكراً وسلوكاً بالقيم والمبادئ التي ينادون بها مما يجعلهم قدوة حسنة فعلاً في نظر أبنائهم مما يسهم في حصول التّماثل والتّماهي.

- اقتناع الأبناء بصحة وصوابية هذه المبادئ.

– إن عدم قدرة الأهل على الحوار والنّقاش مع الأبناء، يتسبب بشرخ كبير، ونحن بأمس الحاجة إلى تكريس نموذج الأسرة التي تعطي الشّروح والتّرغيبات، بدلاً من الأسرة المتسلطة التي تكتفي بالتّعليمات المرهبة.

– الأب صاحب السلطة الفاعلة الحانية.

– الأم صاحبة العاطفة المنعشة وغير المخدرة.

بحيث تكون هذه السلطة مرجعية وبوصلة للسّلوك للأبناء، ولكنها تسلطية أو عنفية.

وعاطفة الأم وحنانها، بمنزلة غذاء ملهم للأبناء على تخطي العقبات الاجتماعية، لتكون الأسرة صمام الأمان لامتصاص إحباط الواقع اليومي ونقمه على المجتمع كسلوك انحرافي.

فعملية الوقاية من السّلوك المنحرف من خلال الأسرة، تعتمد على أهداف ووسائل تربوية متوافقة مع قانون المجتمع، يشرف عليها أب وأم، يحمل كلاهما صورة نموذجية إيجابية سليمة، ويقبل الأبناء قيم الأسرة بعد فهمها والتّكيف معها..

العنف واضطرابات العلاقة بين الجنسين

إن التّباين بين المرأة والرجل يكمن في التّناقض بين الفاعلية والسّلبية، والفاعل هو المرء الذي يسعى وراء الفعل الجنسي ويكسبه، والسّلبي هو الذي يستسلم إلى آخر هذه الفاعلية، والسّلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل كما يقول "فرويد" معممة على الحقل النّفسي في كل مجالاته، فانطباع السلبية يتلقاه الطفل منذ بدء تنشئته الأسرية ليوقظ عنده ميلاً، كي يتحرك بفاعلية في حياته، أو يجعله يصدّر طاقاته السلبية هذه لخارج محيطه الأسري ليصبح بلا شك عدوانياً وعالة على محيطه القريب والبعيد.

في الحب نجد التّضاد نفسه، فالرجل يحب والمرأة تترك نفسها لكي تحب الرّجل السّوي، يتخطى جروحه النّرجسية، والسّيطرة على عقدة الخصاء، لكي يحقق

علاقة موضوعية واقعية عدوانية توظف في غزو المرأة وفي التّسامي ميوله السّلبية تكون مرتهنة لميوله الفاعلة.

أما المرأة السّوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، أما ميولها العدوانية فترتد عليها داخلياً بشكل مازوشي، فأحداث حياتها من فض عذريتها إلى الولادة يوقظ الألم بحسب "هيلين دوتش".

والمرأة السّلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج في مجالات الحياة. التّباين النّفسي بين الفتى والفتاة، لا يتحقّق إلّا عندما يكتشفان الفارق الجنسي التّشريحي.

كما أن الفتاة تصاب بخيبة أمل نتيجة عدم وجود القضيب عندها، الشّيء الذي يبرر احباط أمها بنظرها من عدم امتلاك هذه الأم للقضيب ويجعل هذا التخيل بداية البنت تتجه بمشاعر عدوانية تجاه أمها كونها هي المسؤولة عن ذلك.

"جاك لاكان" يقول بأولوية القضيب في مرحلة أولى، وفي مرحلة لاحقة يحصل للوظيفة القضيبية، أن تطال الذكر والأنثى على السّواء، فالعلاقة الجنسية لا يمكن أن تكتب... القضيب هو الذي لا يمكن الكشف عنه هو دائماً يتخفى... ولذلك تسقط عندها الميول الفاعلة، وترتد عدوانيتها من الخارج، لكي يوظف جزء منها في الدّاخل ضمن هوامات مازوشية.

ولكن المرأة أنوثتها طاغية لا تحب، بل تترك نفسها تحب، فالحب الذي توجهه نحو الطفل، هو من النوع الفعلي الذي يدخل في صفات الرجولة، وهكذا تكون المرأة بموقع رجولي، عندما تهتم بتربية الأطفال بحكم غريزتها.

وبالتّالي يكون الإنجاب عند المرأة ارتباط قيمة وجودية للأنثى لأنّ ارتباط الوليد بالأم هو ارتباط عضوي لا مجال للشك به، أي أنه واقع يربط الجنين مباشرة بالمصدر الذي أخرجه إلى هذه الحياة، ولا يحتمل أي شك..

هذه العلاقة الاندماجية ترمز إلى أسمى ما يمكن أن تعطيه المرأة عن سر كينونتها، فلا يقبل أي تصور بيولوجي أو سيكولوجي نهائي.

ولكن انفصال المولود عنها يضع حداً لهذه النّرجسية لأن الصورة المتكاملة التي كانت تكونها تصبح ناقصة بمجرد خروج هذا المولود إلى العالم، وكي تتمحور العلاقة بين الطرفين حول هذا النقصان المشترك سواء من دواعي رغبة الأم لاستعادته إلى أحشائها، وحنين الثّاني إلى هذا المكان الذي تركه بحكم القوانين الطّبيعية.

فالإنجاب عند المرأة له قيمة رمزية عميقة الآفاق، تتفاخر بها على الرجل ويظهر ذلك من خلال الأساطير والدّراسات الأنثروبولوجية لبعض الشعوب البدائية، إن الرجل تنتابه الغيرة إلى درجة أن يحاكي المرأة أوجاع المخاض، كي يتهيأ له أنه أسهم في الإنجاب...

والأمهات الطّيبات في التّصنيف العام، هن الأمهات المتبلدات جنسياً، لأن اللبيدو غير المستعملة هي التي توظف في أغراض، يكون هدفها الفاعلية. أما بالنسبة للأنا الأعلى، فهو بحاجة إلى توظيف الميول الفعالة والعدوانية، ولكن المرأة السّلبية ذات الأنوثة النّموذجية لا يوجد عندها أنا أعلى، لتكون خلاصة التّباين بين الرجل والأنثى يأتي من باب السّلبية والفعالية (هيلين دوتش: Helene Deutch).

وبذلك فليبيدو الجنسية عند المرأة نحو الرجل له جذور بدائية، تعود إلى المرحلة الفموية في الطّفولة، التي تكوّن معادلتها في اللاوعي (اللاشعور)، ما بين القضيب والثدي وهذه المعادلة تتماشى بشكل متوازٍ مع النظرية الفموية حول العلاقات الجنسية الخاصة بهذه المرحلة، وحول الهوامات الفموية، ليصبح عضو السّيطرة والعلاقات الجنسية تفهم كأنها بهذه المرحلة وحول الهوامات الفموية للحبل والقضيب في مرحلة لاحقة السّادية – الشّرجية، يفقد خاصيته الفموية ليصبح عضو السّيطرة، والعلاقات الجنسية تفهم كأنها سادية والطّفلة تتماهى: إما بشكل فعال بالأب أو بشكل مازوشي بالأم، هوام الحمل في تلك المرحلة هو الطّفل الشّرجي، من حيث أن الشّرج يقوم بدور سلبي على غرار الفم في المرحلة الفموية.

كما أن للثّدي والقضيب والغائط دور فعّال، لتتمهد الطّريق نحو الاستثمار السّلبي للفرج (أي الفتحة الثالثة عند المرأة).

وعلى اعتبار أن خاصية الوضع الاستقبالي الذي يتميز به الفرج على غرار الوضع السلبي، بالنسبة لاستقبال الثدي في الفم وما يحصل من ردات فعل مزدوجة نتيجة الفطام، يمكن الفتاة تبعاً لهذا الاعتبار أن تتخطى صدمة الفراق والفطام.

حيث إن كل الأفعال المتاخمة للوظائف الأنثوية، تمكن المرأة حسب (هيلين دوتش) من تخطي العديد من الصّدمات... كما يمكن أن تعيش أشكالاً عديدة للانحرافات الجنسية من مثل:

الازدواجية الجنسية bisexualite وجذورها:

بالمعرفة التّشريحية والفيزيولوجية للبظر، نجد أن البظر جزء من تكوين الجهاز التّناسلي عند الأنثى، يظهر أن له مشتقات ذكرية، تكاد تشكل عقبة في الوصول إلى الأنوثة السّوية.

تقول جانين لمبل دي كروت (J.lampal-de-groot): إن الفتى والفتاة في المرحلة الأولى يتساويان في المسلك الذّكوري، وحتى في النّمو النّفسي فإنهما ينموان بشكل مشابه من حيث أن التّعلق بالأم واحد... فالفتاة كالفتى تتمسك بالأم، وتريد الاحتفاظ بها لوحدها عنوة عن الأب، الذي يصبح في مفهوم البنت المنافس الأول في هذا الموضوع...

ولكن عندما تكتشف الفارق بينها وبين الصبي، تصاب بالشعور بالدّونيّة وتتوهم بأنها كانت تملك قضيباً، ولكنها حرمت منه بسبب دوافعها المحرمة تجاه الأمم عقدة الخصاء تؤثر على الفتاة بنفس النّسبة التي تؤثر بها على الفتى، تولد عندها جرحاً نرجسياً نتيجة الدّونيّة التي تشعر بها وتحول أيضاً دون تحقيق رغبتها تجاه الأم...

عقد الخصاء تؤدي عند كلا الجنسين إلى انحلال الأوديب عند الطّرفين بالنسبة للفتاة أوديب سلبي، أما الخصاء فهو تهديد للفتى، أما بالنسبة إليها فهو أمر واقع محتوم حيث يحصل تطور بالنسبة إلى العلاقة اللبيدية مع الأم فبدلاً من أن

تتماهى بها تتجه نحو الأب المنافس السّابق التّعويضي، حتى يمنحها طفلاً بديلاً للقضيب المحرومة منه، وتتبلسم جروح نرجسيتها عندما تدرك أن أملها سيتحقق يوماً ما.

علماً بأن الرجال لا يحبلون والمرأة هي الوحيدة القادرة أن تضع طفلاً، في حال الأوديب السّلبي وتبقى الفتاة متمسكة بالأم وانحلال الأوديب لا يكون لديها نهائياً، من هنا نجدها دوماً تنكر واقع الخصاء.

وقد تعود إلى وضع نقوص سابق، مناقشة الذّكر وتحدي الأب بعد أن تكون قد أصيبت بخيبة أمل منه، وفي أقصى الحالات قد يؤدي هذا الوضع إلى المثلية الجنسية.

وغالباً ما يكون الإنكار جزئياً، فتتجه إلى نشاطات خارجية مهنية أو اجتماعية، تنافس بها الرجل، وتتحول في الوقت نفسه عن جنسيتها وفي أحسن الحالات تقيم علاقات مع رجال، ولكن من خلال برودة جنسية لأن غرضها الكامن يبقى الأم.

التّباين بين الرجل والمرأة يكمن في التّناقض بين الفاعلية والسّلبية، الفاعل هو الأمر الذي يسعى وراء الفعل الجنسي، ويكتسبه والسّلبي هو الذي يستسلم إلى آخر، فهذه الفاعلية السّلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل معممة على الحقل النّفسي في كل مجالاته، فانطباع سلبي يتلقاه الطّفل ويوقظ عنده ميلاً لكي يتحرك فاعلياً في الحب لنجد التضاد الحاصل نفسه عند الفتاة، كون الرجل يحب والمرأة تترك نفسها لكي تحب.

وفي الواقع نجد أن الرجل السّوي يتخطى جروحه النّرجسية، والسّيطرة على عقدة الخصاء لكي يحقق علاقة موضوعية واقعية...

ويعيش عدوانيته بأن يوظفها في غزو المرأة وفي التّسامي، فتأخذ لديه الميول السّلبية شكلاً يكون مرتهناً بالميول الفاعلة لشخصيته في الحياة اليومية.

أما المرأة السّوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، وميولها العدوانية ترتد عليها

داخلياً بشكل مازوشي، وأحداث حياتها، من عذريتها إلى الولادة يوقظ هذا الشعور بالألم ليصبح وكأنه جزء بنيوي من شخصيتها.

وحسب "هيلين دوتش" المرأة السّلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج يتباين موقفها ضمن سلبية وفاعلية في المرحلة الأولى من الحياة.

فإن لم تتمكن التربية والثّقافة الجنسيتين من جعل الأنثى تعبر في تكوينها للعمق الخاص المميز لها، ويتم الوعي والتّثقيف ليتم العبور إلى المعرفة بالفرج، الذي يتمثل به النّشاط الجنسي، والوظائف التّوليدية تبقى غير منفصلة عن بعضها، وتمكنها من تخطي العديد من الصّدمات، بمعرفة الفرج، تصل الأنثى إلى المعرفة بأن دور البظر ليس سوى دور الكف عن الفرج..

وهنا يكون البدء بالحديث عن الجنس عند المتكتمين، يبدأ من الحديث حول الأشياء الجنسية ليتم التجرؤ من ثم للحديث عن الأمور الجنسية الحقيقية. فقد وُجِدَ أنّ هناك نساء باردات جنسياً رغم كل المغامرات الجنسية.

بحيث يتضح المعنى الرّمزي للعذرية، حتى عند المومسات، لأن الزمن النّفسي لا يرتبط باللحظة الحاضرة فقط، بل يرتبط بالماضي أيضاً وهو حدث حتمي، من هنا نجد في الأمراض النفسية كيف أنّ اللاوعي يتحرك بدون زمن حيث اللاوعي يجهل الوقت.

حيث لا شيء ملغى في حياة الإنسان الطّفل الذي يبقى دائم الحضور فينا. ويكون الحديث عن موضوع الصّحة العاطفية بناء على التّعاقب السّلالي، بمعنى آخر "تقاطع الإنسان مع كل التاريخ البشري، من المواضيع الشّديدة الحساسية والأهمية" لأنّ الواقع النّفسي له علاقة دائماً بالبدايات الأولى لتكوين الوعي الإنساني المقترن ببدء التفاعل الاجتماعي من خلال التنشئة الأسرية والمجتمعية، وهذا يكون فاعلاً وخارج سياق الحدث الواقعي.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى آليات العمل النفسي التّحليلي قبل كل شيء يكون انطلاقاً من ثنائية ويوجد لكل شخص واقع نفسي وواقع خارجي.

والإنسان عندما يشعر أن واقعه الداخلي، لا يتناسب مع واقعه الخارجي عند ذلك يبدأ الهذيان بإحداث الانغلاق بالدّاخل النّفسي لديه. والشيء الذي يحدث عند فصل الواقعين النّفسي والخارجي، نجده بوضوح عند الهستيريين.

ومن المهم الإشارة إلى فكرة مهمة تتصل بالعمل العيادي، تبدأ الجلسة النفسية على الدوام عند المريض النّفسي من بدء حصوله على موعده، ومن المكالمة الهاتفية ومن رؤية الشّخص في غرفة الانتظار.

حيث إن لقاءات ما قبل الموعد هي لقاءات مؤثرة، حيث أن المحلل النّفسي مثلاً يتساءل عن المطلوب من الشخص، وعن تخيله ولو لم ينطق بكلمة.

المرضى الذين يأتون للعلاج غالباً لا يكتفون بالشّكوى، بل يوجهونها ضد أحد ما، واذا أردنا أن نعرف جهة الشكوى ممن، ولمن لا نجد تردداً في الجواب.

كما أن ظاهرة "حمل الطفل اسم شخص ميت" في العائلة هي ذكرى ساترة، الذكرى الساترة هي ذكرى لها وضوح كبير في الذاكرة، تغطي ذكرى أخرى لا يستطيع الشخص أن يتذكرها.

والسؤال هنا لماذا تسبب حادثة تافهة أزمة قلق شديدة لاسيما عند النساء؟ وهنا يبدو أن المرأة، لا تدري لماذا؟ لأن ظاهرة حرمان المرأة من الكثير من حقوقها الإنسانية يحول القهر والكبت المتحصل عندها نتيجة ذلك إلى عرض مرضي، تتقارب بشدة من خلال الذكرى الساترة ليتجلى العرض النفسي لديها وبغرابة لافتة مرات.

فالنّموذج الأصلي لجنس المرأة هو المرحلة الفموية، فإن الفتاة خلافاً للفتى أمام اكتشافها لهذا الواقع، لا تستطيع أن تتقبل هذا الفهم، فأملها باستحصال القضيب يبقى الدافع الذي يحرك رغبتها في هذا الاتجاه، وهذا في تحولها من الأم إلى الأب في طلبها، فليس إلّا نتيجة اكتشافها بأن هذه الأخيرة التي تشاركها هذا المصير، غير قادرة أن تعوض عليها، سيما إذا ما تبين لها في الوضع السّوي أن الأم تتجه في طلباتها نحو الأب، وأن هذا الأب هو الذي يؤمن لها المتعة في علاقتهما الجنسية.

وبالتّالي يبدو من هنا أن استخفاف الفتاة بواقعها الجسدي وشعورها بالضآلة يتعمم على كل النّساء وبالأخص أمها، أمام هذه الأسباب نجدها تنصرف عن الأم وتتحول إلى الأب بدافع التعويض والمنافسة، ولذا فعندما تدرك أنها لا تستطيع الاستمتاع بقضيب الأب كما هو الحال عند الأم تتجه نحو المعادلة المعروفة:

فالوس = ولد.

أما علاقة الرجل بالمرأة فيتحكم بها هذا الوجه المخفي: التّهديد بالخصاء والشّيطان، المتمثل بتحقيق الرغبة الجنسية، وذلك عبر الإغراء، كون هذه الدوافع تقفز إلى مسرح العلاقة لتخفي وراءها الخوف الكامن، فإذا كانت المرأة تشعر بالنقص، فإن الإغواء يستطيع أن يعوضها عن ذلك بعلاقة جنسية عن طريق امتلاكها لقضيبه، وهذا الالتحام النّاتج عن المضاجعة يمحو الفارق المهدد ولبرهة، ولذا فكل علاقة يتحكم بها الإغراء الجنسي، إذا مالم يستطيع الرجل أن يسقط هذا الحجاب ليكشف عن الصورة الإنسانية للمرأة أي يرضى بتكوينها والاقتناع بأنوثتها، دون أن يثير ذلك في نفسه الخوف والقلق، أو النقيض أي الإغراء والمعادلة التي نصادفها في الحياة العامة، أي أن المرأة معادلة للجنس، ما هي إلّا النتائج المترتبة عن هذا الموقف الأساسي.

الفارق الجنسي بين المرأة والرجل، يجد له الرجل مخرجاً في العقدة الأوديبية المدخل الذي تدخل منه المرأة الى هذه العقدة، والذي يؤدي إلى شهوة القضيب والتي انطلق منها "فرويد" في نظريته حول الأنوثة...

وفي حال لم تستطع المرأة أن تضع حداً لملاحقة غرضها، فإنها لا تكف عن شهوتها في القضيب التي تتمثل في كثير من المواقف المسلكية، وهكذا يتضح لنا مفهوم الغيرة كصفة خاصة عند المرأة، كأنها متلبسة بشعور دائم بالدّونية وحاجة مستمرة إلى التّعويض.

وفي هذا السّياق يبرز موضوع الحمل والولادة، بوظيفته النفسية عند المرأة كدافع ذكوري حماية لها من الخصاء، أي من الانعدام والسّلبية، فالعقدة الخصائية

عند المرأة لها أثر مهم في تحويل، وتشجيع اكتشافها لأنوثتها، ويخلص "فرويد" إلى القول إنّ الفارق الذي يكمن في هذا القسم من التكون الجنسي عند الرجل والمرأة، هو نتيجة طبيعة للتّمييز بين الأعضاء الجنسية، ومن الموقف النّفسي الملتزم به، ويختصر الموضوع بإظهار الفرق ما بين التّهديد بالخصاء وما بين الخصاء.

وهكذا يؤكد "فرويد" على أن مرحلة القضيب التي تمرّ بها الفتاة، والتي هي بحكم أولويتها تستأثر بكل التّوظيفات اللبيدية، وباكتشاف الخصاء فعلاً، يصبح الأوديب بعقدته تركيبة ثانوية، كان مدخلها الخصاء.

ويبدو أن زوال العقدة الأوديبية عند الذكر هو نهائي وشبه تام في المرحلة الثانية من الطّفولة، باعتبار أن الأنا الأعلى قد يصبح وريثه الشّرعي، فإن الحال يكون مختلفاً عند الفتاة لأن تحطم العقدة الأوديبية لا تزال عملية نجهل مصيرها، فهي تتحطم ولكن يشملها الكبت والتّخطي عنها تدريجياً، ونتائج تأثيرها في حياة المرأة تستمر بشكل كامن، مما حدا بـ"فرويد" إلى الاعتقاد بأن غياب الصّرامة الأخلاقية وارتباط مسلكها الخلقي والخلافي بجذور عاطفية يعود إلى عدم تحطيم العقدة الأوديبية، وهذا يفسر في أحكامها العرفية ومن ميوعة شعورها بالعدالة والنّقص في قرارات حاسمة واستخفافها بما يفرضه واقع الحياة بالإضافة إلى كونها قابلة للتّأثر بغيره في أكثر القرارات التي تتخذها لا يوجد مثال أنثوي أو مثال ذكوري صرف فكل مثال يوجد به مزيج من الأنوثة والفحولة، ولذا لا يمكن أن يؤخذ إلّا من النّاحية النّظرية...

وللمال اليوم قيمة علمية في تطور فهم حالة المريض، كونه يضع المال في هوامات قد صنعها الشخص نفسه.. كما أن طريقة الدّفع في الجلسات النفسية مهمة في كل مرة، كأن يكون المال جاهز، أو بحاجة للعد، فذاك مرتبط بالمرحلة الشّرجية، هذه المرحلة غير المستهلكة من قبل الذات... كما لكلام المريض دلالة أخرى مهمة، كأن يقول المريض لن أبقى وحدي مع هذا القلق، إذ هذا إعلان إشارة لخلق نوع من الرّابطة لكي يكمّل عليه المعالج يمكن أن يكون ناصحاً أو مساعداً،

أي لا مكان لشيء مجهول، حل المقاومة والخروج من الانغلاق الثّنائي وفتح العلاقة لتنتقل إلى فضاء التّحليل ليستطيع حل المقاومة.

وقد ذكرت هنا هذه التّفاصيل النّظرية في المتابعة النفسية التّحليلية لمراجعينا من الذين يتوجهون إلينا بطلب المساندة النفسية العلاجية، كونها أكثر ما تتكرر فعلياً لدى النّساء عبر جلسات التّحليل النفسية المتتابعة التي يعيشونها كخبرة حياتية فيها من التّحدي والانتصار على الواقع، وذلك عبر تمثل الوعي الذاتي لفهم ماهية الهوية الأنثوية، ومفاعيل هذا الوعي تنعكس على التّكيف السّليم المعبر عن الصّحة النفسية...

العنف ومعاناة المرأة المتواصلة

يُنظر الى العنف بأنه إشكالية معقدة لما لها من أبعاد اجتماعية وسياسية، وذلك من خلال بنى نفسية خاصة لمفتعليها، فكل ممارسة للعنف، يصاحبها ممارسة خطابية وترويج اجتماعي، وأحياناً ثقافي ليتم تبنيها والعمل عليها.

العنف violence الذي يغذي حضارة الإنسان المعاصر، تلك القوة الطّاغية التي عجزت البشرية عن معالجتها والحدّ من انتشارها، لأنّ العنف ظاهرة ملتبسة ومتداخلة العوامل والأسباب، طرحت حولها تصنيفات وتفسيرات مختلفة من مثل: هل العنف مظهر لصدام الحضارات، أم هل هو ردة فعل ضد الهيمنة العالمية، أم هو أزمة العقلانية ومقتضيات الحداثة، أم هو تعبير عن عدوانية الإنسان وعن بنية المجتمع وثقافته...

وإن كان العنف ظاهرة إنسانية تعمّ المجتمعات فإنها تلقي بأعبائها الكثيرة على الشّعوب بكل الفئات، وعلى الجنسين من الرجال والنّساء ولو اختلفت المعطيات والنّسب.. إلّا أن المرأة ومن خلال دراسات عديدة تكون لها حصة كبيرة من التّظلم والتّعنيف الاجتماعيين، ممّا له عظيم الدّلالة على حياتها وتطورها الاجتماعي، وإعطائها المكانة التي تستحقها في الحياة لتسهم في البناء والتّطوير

جنباً إلى جنب مع الرجال، حيث لا يمكن لمجتمع أن يبنى ويلحق ويسير بركب التّقدم، ونصفه غير مشارك ببنائه وتطوره... فكيف والحال هذا إذا ما أسقطناها على المجتمع السّوري في رصدنا وتأملنا لما هو ملقى على المرأة السّورية في ظل أحداث العنف في السنوات الأخيرة، المتمثلة بأعباء وآلام تثقل لحملها الأجساد والعقول، كما كان حال المرأة الفلسطينية والجزائرية والعراقية والصّومالية واليمنية من قبل وما زلن، ولو اختلفت النّسب قليلاً في بعض الدّول العربية الأخرى...

فالمرأة في مجتمعنا تعاني من اضطهاد مزدوج في ظل الظّروف والأحداث السياسية السّورية الأخيرة، فبالإضافة إلى معاناة القهر والإهمال المزمنة، فقد تشكل للكثيرات من النّسوة في بلادنا متلازمة تسمى "متلازمة التّعب النّفسي Chronic Fatigue Syndrome" فالمرأة التي قد تكون مضطرة إلى الحضور الدّائم في بيت الزّوجية، وحقوقها مهدورة في غالب الأحيان، من حيث أن جهدها مهما بلغ يصنف باللاقيمة له، فإن كان عملها ضمن المنزل فقط، فهو عمل لا أجر ولا قيمة له في نظر الكثير من الأزواج، بل هو واجب عليها الالتزام به، وكفى المؤمنين شرّ فِعالهم.

إن معاناة المرأة السّورية مؤخراً النّاتجة عن تلقيها الأسيّة، من جراء الظّلم العنيف الموجه لها بصورة مباشرة من خلال حوادث كثرت كالاغتصاب والاعتقال وحتى الاستشهاد، وهذا الحال إن لم يكن لها بصورة مباشرة فهو لأولادها، وزوجها لتكون معاناتها قسوة الحياة القاسية في ظل ظروف الحرمان العاطفي، وأبسط أشكال الاستقرار...

الملاحظ في بلادنا حتى في حال دخلت المرأة الحياة العملية، وسوق الإنتاج فإن أولوية الأعمال في حياتها لعمل المنزل، حيث يبقى الزّوج في غالب الأحيان غير معني بتدبر شؤون المنزل، بل يتعامل كأنه مساعد، وفي حال قامت بمساعدته، يظل يعدّ نفسه رجلاً حضارياً يقوم بأعمال ليست من طبيعة عمله، ومجال اهتمامه، فيبدو ذلك وكأنه يتبرع بجهده لزوجته...

من هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن العمل هو المتغيّر المستقل، وأشكال الحياة

جميعها بما فيها الأسرية هي المتغير التّابع، بحيث إن ظروف النّشاط الإنتاجي، هي التي تتحكم في أشكال وصور الحياة جميعها، العقلية والأخلاقية والعاطفية بما فيها العلاقة بين الجنسين، إذ بلغة العلم: الجنس متغير تابع وليس متغيراً مستقلاً، في هذه الحالات، كيف يكون ذلك؟ دعوني أوضح ذلك بما يلي:

– لكي يعيش الإنسان لا بدّ له أن يأكل، ولكي يأكل لا بدّ له من طعام، ولن يحصل على الطّعام إلّا بالعمل، ولكي تستمر الحياة بتعاقب الأجيال، لا بدّ من الإنجاب، ولكي يستطيع من ننجبهم أن ينجبوا بدورهم، لا بدّ أن نعيلهم بطعامهم وتنشئتهم بهدف المحافظة على حياتهم بأحسن المعطيات وفق الاستطاعة المتاحة بصورة فردية أو عبر الإمكانات الاجتماعية الميسرة والمتحققة...

من هنا نجد أن الاقتصاد يتحكم في الإنجاب، والعمل والإنتاج هو ما ينقص في التعبير عما يلزم للتّخفيف عن المرأة معاناتها، وإرساء قواعد المواطنة والاستقلالية والتّنشئة على العطاء المتبادل.

وهذا يقتضي منا نحن المهتمين بقضايا تحرر الإنسان في بلدنا، امرأة كانت أم رجلاً من خلال التّركيز على إعادة التربية على أسس العلم، ومفهوم حقوق الإنسان والمواطنة، سواء كانت إعادة التربية عن طريق الوعظ، ومن خلال تلقي دروس الدّين عبر الجوامع، أو الأخويات أو العلاقة برجل الدّين، ووعظه إلى إعادة التّذكير باستمرار من خلال وسائل الإعلام المختلفة، ونشرات التّوعية من خلال الهيئات والجمعيات والتّجمعات التي تعنى بشؤون الأسرة، والتربية على المواطنة، وذلك عبر اللقاءات والنّدوات التي علينا، ومن الآن التفكير بالعمل عليها بكل الجدّية والإحساس بالمسؤولية.

ومما لا شك فيه أن الأنثى بتكوينها البيولوجي، والعاطفي تحتاج إلى تفهم من قبل من يهتم بتنشئتها من كلا الأبوين، حيث ونحن نعيش القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد من عمر الحضارة، ما زلنا لم نعطِ في تنشئتنا الأسرية والاجتماعية إلّا الأهمية الضئيلة، لخصوصية متغيّر الجنس...

إذ والحال هذه للثّقافة مقتضيات عديدة تسهم في النمو بمراحله المختلفة، وهذا الحال ينطبق على كلا الجنسين من حيث التهيئة لأدوار الرجولة والأنوثة بروح التّوازن والاستقرار، لا الإقدام على كل مرحلة بروح الحماس والانفعال فقط.

كما تؤكده آراء عالمة النّفس الشّهيرة "هير– ماستين" في استعراضها لمكامن التّحيز ضد المرأة في العلاج النّفسي، إذ تجد أنه برغم من أن دور المرأة في العائلة هو مركزي في شخصيتها من حيث التّكريس الاجتماعي لذلك، إلّا أن المسألة المعقدة التي لم تعط أهمية في الدّراسات والأبحاث النفسية، حول طبيعة ما يحدث فعلاً في مؤسسة الزواج، فغياب (المرأة الذات) في الدوائر الأكاديمية تشير إلى أن التّحيز ضد المرأة مرده إلى قصور في المعلومات حول المرأة ومشاكلها.

إذ وجد أن هناك تلازماً عالياً بين التّعصب الجنسي، وبين نقص في هذه المعلومات عند النّساء، أو حتى غيابها في أحيان كثيرة...

فهناك من لديه قناعات راسخة من أنّ آلام النّساء متضمنة، في تكوينهن البيولوجي من خلال آلام الحيض والولادة وإمكانية التعرض للاغتصاب، وهذه القناعات ليست فقط في بلادنا فحسب، بل ما تجده "كابلان" التي رأت في أبحاث لها في أكثر من بلد أن هناك جملة سلوكيات يطلق عليها تسميات خاطئة، ولاسيما تلك التي تسم المرأة بإهمالها لنفسها، من حيث وضعها لحاجاتها كأمر ثانوي مما يتسبب في تأخير اشباعاتها إلى ما بعد إشباعات الآخرين، متجاهلين بذلك الرفض المجتمعي الذي يكرس تبني مثل هذه السّلوكيات، والمواقف التي أملاها المجتمع عليها، والتي تتضمن نكران الذات، في الحياة الزّوجية وديناميةالعلاقات بين أفراد الأسرة، الأمر الذي يجعل المعلومات عن واقع الحياة الأسرية عند كثير من الشّعوب غامضة، وتناولها مخجل في ظل غياب ثقافة الحقوق الإنسانية وثقافة المواطنة، حيث إن استقرار الزواج عند الشّعوب يعتمد كمؤشر للفعالية النفسية دون الالتفات إلى الكلفة النفسية، التي تدفعها المرأة ثمناً لذلك الاستقرار، من حيث تكريسهم أن المرأة هي المستفيدة من الزواج برغم تراكم الإثباتات التي تشير عكس

ذلك، ويمكن أن نعطي مثالاً لما يحصل وحصل للمرأة السّورية، من طرح الزواج أن يكون حلاً لأسرتها في ظل غياب الأمان والقانون وضيق الحال، في ظل ما عانته مؤخراً في مخيمات وبلاد اللجوء، إثر اضطراب الأحداث السياسية وأحداث الشّارع السّوري في عام 2011م، حيث يطرح الزّواج حتى وإن لم يكن مناسباً ومستوفياً لمقومات جيدة تنبئ ببناء أسرة سليمة، فهو يحصل وينجز كونه ستراً لها من العار وانتهاك العرض...

وهنا لا بدّ من ذكر أن الرّضات النّاجمة عن الطّلاق أو موت الزّوج، ما زالت في بداياتها من حيث الرّصد والدّراسة، وتسليط الضوء الإعلامي عليها، وكذلك المآزم النفسية الناجمة عن تأخر زواج بعض النّساء والعزباوات الكبيرات في السن، وكلها فئات نسائية تعاني في مجتمعاتنا لأن الزّواج هو الحالة المعيارية النّموذجية لوجود المرأة . وهنا أجد من الجدير ذكره أن: المظالم المجتمعية التي تخيم على حياة قسم من النساء في بلادنا قد سببت لهن المزيد من الأزمات النفسية، ومنها المآزم التي تتعرض لها الإناث من جراء الاعتداءات الجسدية، أو الجنسية عليهن... فالعنف الأسري الذي بات علنياً في السّنوات الأخيرة، والذي أخذ أساساً شكل ضرب الزوجة أو الاغتصاب الزّوجي قبل أن يكون من أي شخص آخر في ظل عدم الحماية القانونية والفوضى الحاصلة في بلادنا في الآونة الأخيرة، كأن تجبر الزّوجة على ممارسة الجنس، فقط متعة للزوج وواجب عليها، حتى وإن لم تكن راغبة بذلك، بفعل التعب أو عدم رقة أسلوب المعاشرة وإنسانيته، أو ما يسمى شبه الاغتصاب كون بعض الرجال لا يهتمون، بمتعة المرأة أثناء العلاقة الجنسية الحميمة، إذ تكون أنانية كبيرة من طرف الكثير من الرّجال، حيث يعيشوا رغباتهم ويركنوا للنوم أو الانصراف لأمور أخرى بدون الحرص على استمرار المعاشرة، والودّ وتطوير العلاقة والانفتاح على المرأة بالحديث والمشاركة، هذا ما تؤكده حالاتنا العياديّة وأيضاً لقاءاتنا مع النّساء في أنشطة مختلفة...

ومن المظالم التي يجدر لفت النظر إليها:

العلاقات الإثمية الشّاذة في البيئات التي يحكمها الجهل، وسوء الأوضاع المعيشية، كون الأب أو الأخ أو أي قريب آخر قد يستبيح فتيات صغيرات، مما قد يتسبب لهن برضات هلعية تتعرضن لها النساء خاصة بعد الزواج، فتعود لهن مكبوتات اللاوعي المتشكل في مراحل عمرية أدنى، وتكون النتيجة لذلك، حالات عديدة للمعاناة من البرودة الجنسية مع الزوج، وكذلك عدم الاهتمام لأجسادهن، وكذلك الشعور بالقرف والرّفض للجنس، حتى لو كان ضمن شروط الأمان وفق التّشريعات المناسبة لعقد الزّواج، والتّقديرات الرّقمية تشير إلى أن 10% وفق تقدير "هيرمان" من أن النّساء الأمريكيات الصّغيرات تتعرض لنوع من الاعتداء الجنسي العائلي هذا في أمريكا، ولكن ما هي نسبة مثل هذه الممارسات المنحرفة في بلادنا...

وتبعاً لإحصائية هيرمان فإن 1% من الفتيات الصّغيرات تعرضن لاعتداء من الأب نفسه، والدّراسات حول فعالية العلاج النّفسي، وأشكال تدخله في هذه الحالات ليست كافية، أما كوس "Koss" فتشير إلى حدّة أو تواتر العنف الذي تتعرض له المرأة في إطار العلاقات الشخصية التّبادلية لتذكر أمرين غير موثقين بشكل صحيح في الإحصاء المسحي الوطني الأمريكي للجريمة...

فلجنة الطوارئ المنبثقة عن الجمعية السّيكولوجية الأمريكية لدراسة الخور لدى النّساء، تذكر أن مساهمة التّعنيف المتواتر بالاعتداء الجسدي أو الجنسي على الأولاد بنات كنّ أم ذكوراً، أو تعرض النّساء للاغتصاب من قبل الزوج، أو أحد المعارف أو ضرب الزوجة أو التّحرش الجنسي، حتى من قبل بعض المعالجين النّفسانيين مرات، أو أي مصدر آخر للعناية الصّحية، يسهم في توليد العوارض الخورية، وهو أمر مهمل، ولا يلتفت إليه وما يتم تشخيصه بالمزاج الخوري، لنشير إلى أن هذا الأمر قد يكون في الواقع استجابات على مدى زمن طويل لما بعد الصّدمة النفسية المعاشة في مثل هذه الأحوال تجاه العنف من محيط المرأة الحميم، بحيث لا يزال ماضي التّعنيف الذي تعرضت له المريضات والمرضى النّفسيون، بحيث يكون مجالاً للتأويل غير الصائب أو للإهمال، لذلك فإن من آثار العنف

المترتبة على الصّحة النّسائية تبقى بعيدة عن التّداول العلاجي المناسب لتعم الصّحة النفسية في حياة المرأة عموماً...

ما سوف أذكره أخيراً من المآزم النفسية التي ترهق المرأة، وتعد من آثار العنف المجتمعية التي ترخي بظلال المظالم الاجتماعية على كاهلها: حالتي العقم والإجهاض التّلقائي فهذه الإمراضيات الصّحية قد تعدّ إمراضيات منفصلة عن سياقها النّفسي، من حيث قلما يلتفت الأطباء من تخصصات مختلفة في بلادنا، إلى الخصائص الدّفاعية البناءة للمرأة ليكون العقم والإجهاض، تعبيرات في مواجهة زواج فاشل أو تنشئة ظالمة... حيث إن جمهورنا الشّعبي ما زال لا يصدق المسببات النفسية لمشاكل العقم والإجهاض، بل نجد النّفي هو القائم بدلاً من التّصدي لمثل تلك المظاهر...

وبذلك لا يكون من آثار هذه المآزم للنّساء، إلّا المزيد من الاستجابة الفورية للحزن والكآبة، لما بعد التّعنيف وفي حال لم تعالج، تتحول أنماطاً من الأعراض المتنافرة والمزمنة والمتناسقة، مع مؤشرات الخلل النّاجم عن ضغوط ما بعد الحدث الصّادم (ptsd)...

ولا بدّ هنا من الإشارة المتأتية من خلال خبرتي النفسية العيادية أن أذكر أن عدم الإقرار بالفروقات بين الجنسين، ولاسيما في البيئات التي تدّعي التّحضر والعصرية، أجد أن في هذا التفكير تظلم للمرأة من بيئتها، ومن ثم من نفسها فيما بعد، إذ هذا نوع من التّحيز ضد المرأة، وهو من آثار الجهل بإرساء ما يلزم من قواعد التّنشئة...

عالمة النّفس النّمساوية (الأمريكية) دوتش Helene Deutsch، والتي تعد من رفقاء "سيغموند فرويد"، مؤسس النّظرية النفسية التّحليلية، تركزت اهتماماتها حول فهم مرحلة الأمومة. فبحسب "هيلين دوتش" الشّخص الذي يعرض خدماته لمساعدة الآخرين، فإنه يتوقع أن يحصل على ثناء، وإشادة تشعره بالقوة والسّعادة رغم التّعب والإرهاق، الذي قد يتعرض له ثم يشعر بالسّيطرة على الآخرين، من خلال ذلك

المجهود المقدم. إنها تفسر هذه الحالة على أنها مازوخية Masochism اجتماعية.

وقريباً سيتعلم هذا الشّخص أنه كلما عرّض نفسه للتّعب والإرهاق لخدمة الآخرين، تحققت له اللذة والقوة والسّيطرة عليهم، فهو يسيطر على الآخرين من خلال تعريض نفسه للألم، والتّضحية والتّعب.

ووفقاً لـ"هيلين دوتش"، فإن الأم التي تتعب جداً مع أطفالها، وزوجها ومنزلها، تستطيع أن تسيطر على العائلة بطريقة لاشعورية من خلال مازوشية Masochism اجتماعية، ونجد أن الأسرة والزوج والأطفال سيمجدون هذه التّضحيات، وسوف تسيطر على قوام ومقومات بيتها من خلال تضحياتها.

ولكن حسب رأي "فرويد" عبر قوله الشّهير "إن من يعطي أكثر مما يملك يكون سارق"، ففي هذا الحال نجد أن الكثير من الأمهات اللواتي لا زلن في مجتمعاتنا يسرقنَ من تعب أعصابهن، وطاقة أجسادهن في إيثار كبير لعوائلهن، وفي المؤدى تعيش هؤلاء النّسوة الإرهاق بصمت وتعيش معاناتهن بدون المقدرة على التعبير، وهذا هو السيناريو السيّئ الذي يحوّل عطاءهن إلى ميكانيزمات نفسية مرضية كامنة بل مكبوتة، تتفعّل إثر أي حادث صادم، وهذا ما نجده اليوم بكثرة في حياة النّساء السّوريات، لأن الأمور تتجاوز المرأة بمقدرتها على العطاء، وهؤلاء النسوة يعطين فلذة أكبادهن وأزواجهن لينعم الوطن.

فأي حياة بتقديركم ستعيش هذه النّسوة في المراحل المقبلة؟ ما الذي ينتظرهن بعد كل هذه المآسي المعاشة؟

تعطي "هيلين دوتش": توضيحات لهذه الحالة، فتؤكد أن اللذة من جراء السّيطرة العاطفية على الآخرين تكون فوق طاقة الأم، لأنها تعتمد على تسخير، وإرهاق للنّفس، التي ستنفذ طاقتها الكامنة قريباً.

كما يرى "فرويد" مؤسس العلاج النّفسي التّحليلي في توضيحه لمهام العمل النّفسي عبر المنهجية العلاجية، الذي اكتشفها، وبرع في إظهار النتائج العلاجية بممارسته لها...

يقول "فرويد" في هذا السياق: إن المهمة الأساسية في التّحليل النّفسي هي الوصول إلى المشاهد البدائية، التي يمكن أن تظهر مباشرة، أو بوساطة الهوامات التي هي بناء دفاعي تسمح بعدم التّذكر الكامل للواقعة النفسية الأساسية، وهي تدمج التّجارب بسياق هوامي دفاعي، يحتوي ما حصل عند الأهل، والجدود أيضاً وتربطه بما شاهده المريض نفسه، بقايا الذّكريات المثيرة للحالة الانفعالية، ويتم ذلك في إطار مركب ومعقد ومتكامل، وتأخذ الهوامات بعدها وهندستها عبر إعطاء صيغة التّفكك للذّكريات الحاصلة...

وبذلك في حال لم تعد تَقدر النّسوة على تقديم المزيد من التّضحيات، لأنهن لا يقدرن على التّخلي عن أسرهن، فسيكون الحل أيضاً ماسوشياً عندئذ، أي أن "التّعب النّفسي" سيكون من خلال الآلام والمعانة حلاً مرة أخرى لهن.

إنه حل سوف يسيطر على الأسرة من جديد، من كونه يجعل أفراد الأسرة ملتّفين حولها، وسيكون أيضاً مقبولاً من وجهة نظر المجتمع، وسيعدّ قبل ذلك كله متنفساً لاشعورياً لمكبوتات ترفض الواقع، وإرهاصاته السّاحقة، وسيكون هذا الحل بالنّكهة الماسوشية المتألمة والمتلذذة نفسها!

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الماسوشية لدى المرأة في مرات عديدة تتطور لتكون شكلاً أيضاً من "النّرجسية التّدميرية Destructive Narcissistic" التي ستحب الذات محبة سلبية، وستتلذذ بغير وعي بتعذيب الذات لتحصل على رضا والتفات، وانتباه من الآخرين، إنها لحظة للتلذذ بالمعاناة، وحب النّفس المتألمة التي يلتف نحو أنينها، ومعاناتها الآخرون.

إذ من خلال جلسات الاسترخاء والتّداعي الحر بداية قد تكون بداية جديدة وجيدة، لتخرج هذه المرأة الكثير من المكبوتات، ولتبذر نواة التّصالح مع الواقع. وأن تتعلم فيها أنها من الممكن أن تحب نفسها، وتحب أطفالها و زوجها، دون أن تغوص في الألم بماسوشيتها، ودون أن تبحث عن السّيطرة على أفراد أسرتها.

وهنا أجد لزاماً علينا أن نعمل هنا على تقديم الجزء الذي يمكن أن يتحكم،

ويخدم عالم المرأة وحياتها، وذلك عبر نشر الوعي والثقافة العامة بمراحل النمو والحاجات المرافقة ونشر الثّقافة الجنسية الميسرة للجنسين فبيل البلوغ وقبيل الزّواج بصورة خاصة، فنقوم من خلال ذلك باستبدال قوى المكبوتات اللاشعورية المسيطرة على حياة تلك النّساء بقوى العقل الشعوري الواعي الذي تصحح مدركاته، ويعطى فرصة أكبر في ممارسة دور القيادة للحياة النفسية والشخصية، في حياة المرأة وحياة أسرتها وبالتالي مجتمعها...

أما تناول حالات الاضطرابات النفسية من منظور السّببية التّحليلية القائمة على فهم قوة اللاشعور، فتجعل المتتبع لهذا الاضطراب يشعر بأن هناك فوضى في كل مكان من عالم الإنسان، لكن علاج اللاشعور يشكل أحياناً مفترق طريق لبعض المرضى، والمريضات ممن تتبع مشكلاتهم النفسية من سبب لاواعٍ، وليس من سبب واعٍ، وما أكثر توارد ذلك في خبراتنا النفسية العيادية...

هذه الاضطهادات آتية من تفاقم الإيديولوجيا الدّينية، وتراجع القيم الأخلاقية السّامية، من خلال الإسقاط على كل شؤون النساء وجعلهن تابعاً للتّعليمات من دون وعي أو حتى إدراك، فالعلاقة الهامشية بين الرّجل والمرأة داخل البيت، تجعل للمرأة وصفاً خاصاً مهمشاً، لأنها تفقد صفتها الإنسانية، وتجبر أن تحافظ على العادات والتّقاليد التي تكرس استلاب المرأة الاجتماعي alienation، وتحجر المؤسسات المختلفة التّربوية والاجتماعية هذا الوعي، بيد أن العادات والتّقاليد التي ترسخها المؤسسات هي بحد ذاتها انعكاس للوضعية الاقتصادية للمرأة في المجتمع، فهي سلاح ذو حدين في السّلب والإيجاب، فمثل هذه المؤسسات قد يكون لها دور فعال في تغير البنى الاجتماعية، ونشر ثقافة المشاركة والوعي المنطقي لحاجات الجسد، عبر المعرفة العلمية السّليمة لذلك...

وهنا لا بدّ من التّركيز والتّوضيح أن السّمات النفسية الأنثوية، ليست سلبية وغياب المبادرة والعزلة، يتم تحميل مسؤوليتها للتركيب العضوي وليست إلّا التعبير عن وضع اجتماعي وثقافي معين، وبذلك الوضع البائس للمرأة العربية الذي

لا يمكن تخطيه باتجاه تحرر فعلي، ما لم يتم تغيير البنى الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية التي هي أساس المجتمع الطّبقي التشكل في غالبية بلدان عالمنا العربي.

وتبقى الإشارة إلى أن التّحرش الجنسي، يعدّ شكلاً بارزاً من أشكال العدوان على المرأة في بلادنا.

إن سلوك التّحرش الجنسي، هو إشارة إلى سلوك نفسي اجتماعي مركب يلزمه علاج على المستوى الشّخصي، ومحاربته اجتماعياً كسلوك مهين لإنسانية الجنسية، كون الجنس تجانساً وتشاركاً وتفاعلاً مريحاً وليس تحكماً وغدراً وسرقة...

فالعقل الحر لا يلد إلّا حريّة، وهي حريّة سليمة ومسؤولة، فلا النقاب يزيدنا قرباً من الله ولا العريّ يزيدنا قرباً من الحريّة... فنحن كشعوب عربية بحاجة إلى فكر ورؤية جديدة لأزماتنا السياسية والاجتماعية والفكرية... لذا لتكون المرأة محررة تماماً ومساوية للرّجل، ينبغي أن تكون هناك شراكة في تبعات الحياة الزوجية بدءاً من أعمال المنزل لتكون الشّراكة عملية وحيوية إلى إسهام المرأة في الإنتاج، مما يعطيها إسهاماً وموقعاً لائقاً في الحياة الزّوجية، لينعكس بالتّالي على سلامة تنشئة الأجيال، وبالتّالي على تقدم المجتمع.

التّحليل النّفسي للرّغبة والحب عند الجنسين

يمكن البدء لدى الصبي بحيث لا تكبت العقد النفسية لديه، بل يتاح لها أن تتفجر تتطاير شظاياه تحت صدمة التّهديد بالخصاء، إن لم تتم التّنشئة على المعرفة النفسية الضّرورية لذلك، ومن ثم فإن توظيفاتها اللبيدية تهجر، ويخرج من طابعها الجنسي ويتم تصعيدها جزئياً من خلال موقع الطّفل بين أبويه، ولداً كان أم بنتاً من حيث التّقبل لجنسه، والتربية الإيجابية على تقدير الذات ونعمة الاختلاف والمشاركة.

من هنا تفهم المعاناة النّسائية من وجهة نظر التّحليل النّفسي، فإذا كانت بنية الأنا الأعلى الأنثوية واهنة ومفككة، فإن التّحليل النّهائي لهذه الظاهرة يشير إلى أن

السلطة الأنثوية، ليست سوى تمثيل عميق لا واعٍ للسلطة الأبوية، وهذا "التّمثل" representation لا يتم إلّا في أجواء الغياب المادي لهذه السلطة، بعد أن تؤدي دورها في عملية التّشريط الانفعالي لحضور الأبوين الواعيين في حياة أبنائهم خلال مرحلة الطّفولة، دون أن تتحول إلى سلطة ذاتية، على شكل أنا أعلى اجتماعي، يكرس بحكم المحرم والمنوع والمسموح به في أي مجتمع، من هنا يمكن تفسير فخامة انحراف الأسرة عن إطار القيم الأخلاقية السّائدة، في حياة النّاشئة في أي زمان ومكان وعند أي مجتمع لا على التعيين، من حيث محتوى السلطة الأبوية المحابي للذّكر، يسمح للأهل بالثقة بأبنائهم الذكور وبسلطتهم الذاتية المتمثلة بالأنا الأعلى، فانعدام الثقة هذا بالأنثى هو ما يقف خلف هوامات الأهل المتعلقة بغواية المرأة وشيطنتها.

لذلك من الأمور التي أجد من المهم الانتباه إليها هنا، في حال التّخطيط لمستقبل المرأة السّورية، هو كيفية تعزيز السّلامة الأسرية من خلال الاهتمام بالصّحة الإنجابية بمعناها النّفسي والسّلامة العاطفية، وتفاصيل التّنشئة المبنية على خصوصية الذّكورة وخصوصية الأنوثة والتّحفيز على المساواة، وأهمية كل طرف للآخر من كلا الجنسين حتى يحصل النمو السّليم وتعاش الحياة لكليهما، بأفضل السبل للاستمتاع والسّعادة ..

في بلادنا هناك مقولة شائعة "المرأة لا تحقّق ذاتها إلّا إذا أصبحت أمّاً" من الوجهة النفسية قد تكون هذه المقولة صحيحة، لأن الإنجاب ضرورة لتحقيق الذات النّسوية، ولكن هذا لا يجب أن يغفلنا عن الألوان المختلفة للإحباط، والمآسي التي يسببها الإنجاب للمرأة، هذه المعاناة قد تحصل نتيجة أسباب عدة، منها ما هو بيولوجي ومنها ما هو نفسي اجتماعي، أما الأسباب البيولوجية للإنجاب فقد تحصل من خلال آلام الولادة ومصاعب الحمل عند بعضهن، أما الأسباب النّفس اجتماعية من مثل الفوضى والضّغوط الاجتماعية والاقتصادية التي ترافق أحياناً عملية الانتقال من وضعية الأنثى إلى وضعية الأم...

وإذا كانت المرأة تحيا بالإنجاب كضرورة لصحتها النفسية، فالرجل يعطي للإنجاب من حياته الكثير كضرورة مستقبلية مجتمعية لاستمرار النّسل، والاسم والمرجعية... وبذلك الصّحة الإنجابية مطلب نسوي ملحّ ومطلب ذكوري غير مباشر، ومن هنا أيضاً لا بدّ من الانتباه إلى الشّروط السّليمة للإنجاب الصّحي، وقوننتها حتى لا تورّث مشاكل اجتماعية تعم البلاد مستقبلاً.

هذه الشّروط كثر الحديث عنها سابقاً، ولكن لم أجد لذلك تطبيقاً ملزماً لأية جهة عنيت بالمرأة والأسرة، بأن تُركز على تثبيتها في ثقافة النّاشئة.

ويمكن تبويب ذلك وفقا لما يلي:

1- معرفة المرأة، معرفة علمية بالعلاقة الجنسية، وبخصائصها عند الرجل، وعند المرأة وفيما بينهما..

2- القدرة الجسدية والنفسية والاجتماعية على تحمل مسؤولياتها تجاه قرار الإنجاب والقيام بمستلزمات هذا القرار.

3- معرفة المرأة بتبدلات الجسد ووظائفه، وكذلك معرفة الرجل الزوج الشّريك لتبعات هذا القرار والمسؤولية الكاملة في حال حصول الحمل عند الزّوجة.

4- تنفيذ قرار الإنجاب وإجبار الزوج (المرأة) على الحمل، له مخاطر نفسية عديدة على الجنين، من كونه سيصبح مستقبلاً ابناً غير مرغوب فيه، ويجعله عرضة لأنواع مختلفة من الهزات والصّدمات..

ومن المشاكل المحتملة عند المرأة والتي تؤثر على الصّحة الإنجابية أذكر:

- اختيار قرار الإنجاب برغبة أهل الزّوج، وبدون رغبة الزّوجين بذلك، نظراً لعدم جهوزيتهما بعد، لتأسيس أسرة مع أبناء... مما يجعل استهلاك العلاقة الزّوجية، بخروجها عن مسارها كعلاقة شراكة لأهداف وطموحات الشّريكين.

- صعوبة الحمل والولادة والمشاكل الصّحية، التي قد تظهر وتغير صورة الجسم لدى المرأة، وآثاره على الرّجل وتحميل المرأة مسؤولية ذلك.

- إنجاب أطفال كثيري العدد، يجعل العلاقة الأسرية تستنزف الأم، من

خلال تراجع صحتها من مشاكل تكثر في بلادنا، ترقق العظام نتيجة عوز الكلس والإجهاد، وكذلك مشاكل هبوط الرّحم، والنّزيف المزمن. إضافة إلى عدم الرعاية المناسبة لكل طفل في الأسرة، لافتقار العلاقة الأمومية والأبوية معه.

إذ من الأمور التي تسبب معاناة المرأة في أسرتها، وكنتيجة لتداعيات الصّحة الإنجابية النّفس اجتماعية أذكر:

– إن الزّواج من قريب، قد يتسبب بولادة أطفال لديهم إعاقات، مما يسبب للمرأة انهيارات نفسية واجتماعية.

– الإجهاضات المتكررة.

– ومن الأمور المسيئة لصحة المرأة الإنجابية: إرغام المرأة على الزّواج من شخص لا تريده.

– ومن الأمور المسيئة للصّحة الإنجابية أيضاً: الإنجاب خارج إطار الزّواج الشّرعي الرّسمي، مما يعرض المرأة لإدانة أخلاقية، يكون سبباً في مشاكل نفسية عميقة قد تعاني منها، ويعرض الوليد لرفض لاحق، وسوء نظرة له كذات حية.

– إنجاب المرأة الكبيرة في السّن، بعد سن الخامسة والأربعين، له مشاكله ومحاذيره.

– حالة المرأة النفسية كونها ترفض الأطفال وتعيش انحرافات جنسية يعيق الصّحة الإنجابية في حال حصل الحمل.

– إنجاب التّوأم وقد يتسبب ذلك بمشاكل مختلفة على صحة الأم، وكذلك تنشئة الطّفلين التوأمين مستقبلاً.

وأخيراً لا بدّ من التّركيز على أن الآثار النفسية المختلفة من جراء تعرض المرأة للعنف، وما تتركه من آثار على الصّحة الإنجابية تتمثل بالعديد من الأعراض النفسية لا بدّ من التّوعية لها.

ولما كانت الطاقات النّسائية من أكثر الطاقات تعرضاً للعنف، وخضوعاً له، والعنف الذي تتعرض له المرأة يصيبها بأعراض عديدة من مثل:

1- أمراض نفس جسدية كارتفاع الضّغط، والتّشنجات العصبية، حالات الهستيريا، والانهيار العصبي النّاتج عن فقدان الشّهية، الشّراهة في الإقبال على الطّعام لحدٍّ غير مقبول إنسانياً...

2- الغيرة والحقد وتصلب الطّباع، والبنية الجرمية كسلوك دفاعي عن جروحها النّرجسية الكثيرة.

3- العنف قد يؤدي إلى العقم ورفض الإنجاب.

4- العنف قد يكون يسبب إعاقات جسدية ونفسية للجنين.

وبذلك نصل من خلال ما تقدم لحجم الأذيات الحاصلة للمرأة، وبالتّالي الخسائر المجتمعية المترتبة من هدرنا لطاقة المرأة، وحضورها في التّنمية، إن لم يتم تدارك وعلاج آثار المظالم والعنف المكرّسة والمستجدة على حياة المرأة التي بطبيعة الحال ستنقل وترخي بظلالها على الرّجال...

إشكالات التربية الأسرية كعائق للدّيمقراطية

قد لا يختلف أحد منا في الجدل حول المسؤولية المهمة للأسرة والمجتمع بمؤسساته التربوية، في زرع قيم العمل الصّالح المتوافق مع مبادئ الأخلاق العامة، فمن الثّابت أن نمط وأشكال تعامل الأسرة، مع الأبناء هو وقاية من الجريمة والانحراف للأبناء، أما تفكك الأسرة فهو سبب لسلوك الانحراف والتّهميش في مسيرة حياة الأبناء، فدور الأسرة المتمثل بتنظيم العلاقات فيما بين مكوناتها، يمثل دوراً علائقياً تبعاً لنمط الأسرة كونها محكومة بقوانين الاستقلال في مجالات الحياة كافة من جهة، ومحكومة من أخرى بقوانين التّبعية حول هذه الحالات.

وتتمثل العوامل الحاسمة في نمط التربية الأسرية بما يلي:

- إحساس الأبناء بمدى وعمق اقتناع الأهل فكراً وسلوكاً بالقيم والمبادئ التي ينادون بها مما يجعلهم قدوة حسنة فعلاً في نظر أبنائهم مما يسهم في حصول التّماثل والتّماهي.

– اقتناع الأبناء بصحة وصوابية هذه المبادئ.

– إن عدم قدرة الأهل على الحوار والنّقاش مع الأبناء يتسبب بشرخ كبير، فمن الأسرة التي تعطي الشّروح والتّرغيب، بدلاً من سيطرة أجواء الأسرة المتسلطة، التي تكتفي بإعطاء التّعليمات المرهبة والتّحذير من الخروج عنها إلى الأب صاحب السلطة الفاعلة والحانية، والأم صاحبة العاطفة المنعشة وغير المخدرة.

بحيث تكون هذه السلطة مرجعية، وبوصلة لسلوك الأبناء وغير تسلطية أو تتسم بالعنف. فعاطفة الأم وحنانها، بمنزلة غذاء ملهم للأبناء على تخطي العقبات الاجتماعية، لتكون الأسرة صمام الأمان لامتصاص إحباط الواقع اليومي ونقمة على المجتمع كسلوك انحرافي.

فعملية الوقاية من السّلوك المنحرف في الأسرة، يعتمد على أهداف ووسائل تربوية متوافقة مع قانون المجتمع، ويشرف عليها أب وأم يحمل كلاهما صورة نموذجية إيجابية سليمة، ويقبل الأبناء قيم الأسرة بعد فهمها والتّكيف معها...

مشاكل الأسرة المعاصرة

تعددت مشاكل الأسرة في عصرنا الحاضر، لأنها فقدت نتيجة التّغيرات الاجتماعية كثيراً من وظائفها التي كانت تقوم بها عن ذي قبل.

فأدى ذلك إلى تفكك عرى الأسرة، وانهيار الروابط التي كانت تربطها فيما سبق. ومن المخاطر الرئيسية في المجتمعات الحديثة، أن الدّور الطّبيعي الذي كانت تقوم به الأسرة قد تضاءل نتيجة لاستيلاء مؤسسات أخرى على كثير من مسؤولياتها، ونخشى نتيجة التّضاؤل أن تفقد الأسرة الأثر الفعّال الذي هو أهم قوى الاستقرار في مجتمعنا...

فالمرأة في السّابق كانت مستقرة في بيتها وتعتني بتربية أولادها، والقيام بشؤون زوجها، وكانت تقوم مقام المعلم بين أبنائها، تشترك مع الرجل في ذلك. أما في عصرنا الحاضر فقد خرجت الزوجة لتقوم بأعمال تشابه أعمال الرجل خارج المنزل،

وأصبحت شؤون المنزل والقيام بمهامه عملاً ثانوياً بالنسبة لها، كما وأصبحت المرأة في كثير من الدول ترى أن إنجاب الأطفال يتعارض مع قيامها بتولي الوظائف العامة، وهو الأمر الذي نجم عنه تحديد النسل، وعدم التفكير في إنجاب الأطفال.

وما لا شبهة فيه أنّ المرأة مسؤولة عن تهيئة الجو الاجتماعي والنّفسي لنشأة الأطفال نشأة سليمة متكاملة. فقد نجم عن تخلّيها عن هذه الوظيفة كثير من المضاعفات السيئة، وكان من أهمها (انهيار الأسرة)، فقد أصبح التقاء المرأة بزوجها وأطفالها التقاءً سريعاً، وأصبحت الأسرة في نظر الكثيرين أكثر شبهاً بـ(الفندق)، من دون أن يوجد ذلك الرباط الاجتماعي والنّفسي الذي يربط بين أفراد الأسرة، والذي يدعوهم دائماً إلى وضع مصلحة الأسرة فوق كل اعتبار.

كما أنّ خروج المرأة من البيت قد أوجب حرمان الطّفل من التّمتع بحنان أمه، وذلك لمزاولتها العمل، وتركه لها أكثر الوقت، ومن الطّبيعي أن تغذيته الاصطناعية وتعهد شؤونه لمربية ما، لا يسدّ حاجته لحنان الأم وعطفها، فقد أثبتت التّجارب العلمية أنّ الطّفل لا ينمو ولا يترعرع على حليب أمه فحسب، بل على عطفها وحنانها كذلك .

وهذا الغذاء العاطفي لا يقل أهمية عن الغذاء الجسدي في تنمية شخصيته، ومن هنا جاءت أفضلية التّغذية الطبيعية من ثدي الأم على التّغذية الاصطناعية، ففي الأولى يتمتع الطفل بأمرين هما الغذاء والحنان، وأمّا التّغذية الاصطناعية، فإنها تخلو غالباً من شعور الطّفل بحنان أمه، والأمان الوجودي من خلال حرارة جسد والدته الحاني.

ومن هنا يستحسن لأجل الأطفال الذين يحرمون من التّغذية الطّبيعية، أن تضمهم أمهاتهم إلى صدورهن، حسب ما ينصح به أطباء الأطفال فإن حرموا من الغذاء الطّبيعي، ينعمون بدفء العلاقة مع الأم من خلال نبض حرارة جسدها الذي لديه سجل معروف في ذاكرة الطّفل، بدءاً من المرحلة الجنينية.

وعلى أي حال فإنّ الطّفل لا ينشأ نشأة سليمة، إلّا إذا أخذ حظه من الحب

والحنان من أمه، وهو قد حرم من ذلك أو قلّ تأمين رعايته العاطفية بصورة مستقرة حين انعزلت والدته عن دورها المعتاد في التربية.

وقد أعاب على المرأة خروجها من بيتها جمع كبير من العلماء، نذكر آراء مجموعة من بعض هؤلاء تبعاً للتالي:

بدءاً من الفيلسوف الإنجليزي الكبير (برتراند رسل) الذي يقول: إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة.

إلى قول العالم الاقتصادي (جون سيمون) الذي يوضحه كما يلي:

النساء قد صرنَ الآن نسَّاجات وطبَّاعات، وقد استخدمتهن الحكومات في معاملها، وبهذا فقد يكتسبن بعض المال، مقابل ذلك قد قوَّضن دعائم أسرهن تقويضاً، نعم إنّ الرجل صار يستفيد من كسب امرأته، ولكن إزاء ذلك قلَّ كسبه لمزاحمتها له في عمله.

والكاتبة "آني رورد" لها قول مميز حول هذا الأمر: لأن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير، وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة، والعفاف والطهارة، الخادمة والرقيق ينعمان برغد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء.

لتكمل: نعم إنّه العار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، ونوافق كل عمل تقوم به بفطرتها الطبيعية كالقيام بأعمال البيت وترك أعمال الرجال، سلامةً لشرفها.

– وقول (ساموبل سمايلس) المأثور: إنّ النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل مهما تنشأ عنه من الثروة للبلاد، فإنّ نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية، لأنّه يهاجم هيكل المنزل، ويقوّض أركان الأسرة، ويمزق الروابط الاجتماعية.

هذه بعض الآراء التي أدلى بها عدد من المفكرين، المعبرة بمستوى ما عن الرؤية العلمية عبر المحاولة الجادة للإقناع بها، ولكن تبقى آراء لها من المحدودية التي لا تعيننا على التكيف مع ايقاع الحياة العصرية الحديثة، ليكون خروج المرأة من بيتها ودخولها في المعامل، ومزاحمتها للرجل في عمله واقتصاده، قد أدى إلى عجزها عن القيام بوظيفتها في التربية، فهذا الأمر يمكن أن نتداركه ويُخفّف من تأثيره بإجراءات تنصف المرأة وتعاد صياغة تفاصيل الشراكة في الحياة الأسرية، حتى نقي الأبناء والحياة الزوجية من ارهاصات عمل المرأة بتبعاته المؤثرة على راحة الحياة العائلية...

فإن لم تعد المرأة إلى المنزل إلّا وقد أضناها العمل، واستنزف التعب قواها كلها، فكيف تتمكن من تربية أطفالها تربية سليمة وهنا صلب عمل التربية الحديثة وإشكالاتها؛ حيث إنه من الطّبيعي أن ذلك يشكل خطراً جسيماً على تربية الطفل، كما يعرّضُه إلى الإصابة بكثير من الأمراض النفسيّة، وعدم الاستقامة في سلوكه، حسب ما دلَّل عليه علماء التربية والنّفس...

وهنا سوف أعرض لمثل نيجيري بهذا الصّدد يقول: "يمكننا أن ننال الرّاحة والشّفاء فقط عبر التّكلم وتبادل الآراء، أما العزلة فتزيد من الهم". وتبعاً للتّعقيدات التّربوية في العصر الحديث كان لا بدّ أن ينشط العمل النّفسي التّربوي الاجتماعي، ليكون عمل النّفسانيين والتّربويين والاجتماعيين موازياً لحضور الأبوين في حياة أطفالهم، ففي حال شعر الأبناء بأنهم يحتاجون إلى توجيه ونصائح في مختلف الحالات الحياتية، فيمكنهم طلب المساعدة اليوم من عاملي الإرشاد النّفسي والاجتماعي بصورة ميسرة ومخطط لها لتكون مرممة للفراغ الحاصل من انخراط المرأة الأم في سوق العمل.

وبذلك يصبح واجباً اليوم أن يقوم عاملو النفسي والإرشاد الاجتماعي بمناقشة عن وضع من يطلب الاستشارة، من أجل التّعاون معه والعمل معاً، لتحديد المساعدة التي تحتاجها عائلته من مثل:

– كالدعم المادي أو الرّعاية اليومية للأطفال.
– مساعدة في العناية بالبيت أو نشاطات إجازة الأطفال.
– أو حل المشاكل الزّوجية والأزمات العائلية.
– أو طلب معونة استشارية لمشاكل تربية الأطفال.

أمّا حالات مشاكل العلاقات الثّنائية، والعلاقات الزّوجية فتتم معالجتها حسب طبيعتها، فقد تكون مثلاً من نوع فقدان الاتصال وعدم التّكلم بين الزّوجين أو مشاكل الخيانة الزّوجية، أو الغيرة أو المشاكل النفسية الناجمة عن المشاكل الزوجية، أو مشاكل الإدمان على الكحول أو مشاكل النمو للمراهقين.

ومن الأمور التي أجد من المهم الانتباه إليها في التّخطيط لمستقبل المرأة السّورية في ظل متغيرات العصر الحديث والظّروف المضطربة التي عاشتها الأسرة السّورية في السّنوات الأخيرة من جرّاء أعمال العنف التي استفحلت في البلد، أعرض لما يلي:

كيفية تعزيز السّلامة الأسرية من خلال الاهتمام بالصّحة الإنجابية بمعناها النّفسي والسّلامة العاطفية.. صحيح أنّ موضوع الأمومة موضوع له إشكالاته، وما هو منتظر من هذه الحالة من أنّ المرأة لا تحقّق ذاتها إلّا إذا أصبحت أمّاً على رأي الكثيرين، من الوجهة النفسية قد تكون هذه المقولة صحيحة، لأن الإنجاب ضرورة لتحقيق الذات الأنثوية، ولكن هذا يجب أن لا يغفلنا عن الألوان المختلفة للإحباط، والمآسي التي يسببها الإنجاب للمرأة، هذه المعاناة قد تحصل نتيجة أسباب عدة، منها ما هو بيولوجي، ومنها ما هو نفسي اجتماعي، أما الأسباب البيولوجية للإنجاب فقد تحصل من خلال آلام الولادة، ومصاعب الحمل عند بعضهن، أما الأسباب النّفس اجتماعية مثل الفوضى والضّغوطات الاجتماعية والاقتصادية التي ترافق أحياناً عملية الانتقال من وضعية الأنثى إلى وضعية الأم، فلها معانٍ عميقة عن الجنس الأنثوي في العقود الأخيرة...

فإذا كانت المرأة تحيا بالإنجاب كضرورة لصحتها النفسية، فالرّجل يعطي

للإنجاب من حياته الكثير كضرورة مستقبلية مجتمعية، لاستمرار النسل والاسم والمرجعية... وبذلك الصّحة الإنجابية مطلب أنثوي ملح ومطلب ذكوري غير مباشر، ومن هنا أيضاً لا بدّ من الانتباه إلى الشروط السّليمة للإنجاب الصّحي، وقوننتها حتى لا تورث مشاكل اجتماعية تعم البلاد مستقبلاً.

هذه الشّروط التي كثر الحديث عنها سابقاً، ولكن لم أجد لذلك تطبيقاً ملزماً لأية جهة عُنيت بالمرأة والأسرة.

1- معرفة المرأة، معرفة علمية بالعلاقة الجنسية وبخصائصها عند الرجل، وعند المرأة وفيما بينهما...

2- القدرة الجسدية والنفسية والاجتماعية على تحمل مسؤولياتها، تجاه قرار الإنجاب والقدرة على القيام بمستلزمات هذا القرار.

3- معرفة المرأة بتبدلات الجسد ووظائفه، وكذلك معرفة الرّجل الزّوج الشّريك لتبعات هذا القرار والمسؤولية الكاملة في حال حصول الحمل عند الزّوجة...

4- تنفيذ قرار الإنجاب من خلال إجبار الزّوج (المرأة) على الحمل، له مخاطر عديدة نفسية على الجنين، لأنه سيصبح مستقبلاً ابناً غير مرغوب فيه، ويجعله عرضة لأنواع مختلفة من الهزات والصّدمات.

ومن المشاكل المحتملة عند المرأة، والتي تؤثر على الصّحة الإنجابية أذكر:

- كأن يكون اختيار قرار الإنجاب برغبة أهل الزّوج، وبدون رغبة الزّوجين بذلك، نظراً لعدم جهوزيتهما بعد، لتأسيس أسرة مع أبناء... مما يجعل استهلاك العلاقة الزّوجية بخروجها عن مسارها كعلاقة شراكة لأهداف وطموحات الشّريكين.

- صعوبة الحمل والولادة والمشاكل الصّحية، التي قد تظهر وتغير صورة الجسم لدى المرأة، وآثاره على الرجل وتحميل المرأة مسؤولية ذلك.

- إنجاب أطفال كثيري العدد، يجعل العلاقة الأسرية تستنزف الأم من خلال

تراجع صحتها من مشاكل تكثر في بلادنا، كترقق العظام نتيجة عوز الكلس والإجهاد، وكذلك مشاكل هبوط الرحم، والنزيف المزمن.

إضافة إلى عدم الرعاية المناسبة لكل طفل في الأسرة لافتقار العلاقة الأمومية والأبوية معه...

الآثار النفسية المختلفة من جراء تعرض المرأة للعنف

لما كانت الطاقات النّسائية من أكثر الطاقات تعرضاً للعنف وخضوعاً له، فالعنف الذي تتعرض له المرأة يصيبها بالأعراض التّالية:

1- أمراض نفس جسدية مثل ارتفاع الضّغط، والتّشنجات العصبية، حالات الهستيريا، والانهيار العصبي الناتج عن فقدان الشّهية، الشّراهة في الإقبال على الطّعام لحد غير مقبول إنسانياً...

2- الغيرة والحقد وتصلب الطباع، والبنية الجرمية كسلوك دفاعي عن جروحها النرجسية الكثيرة.

3- العنف قد يؤدي إلى العقم ورفض الإنجاب.

4- العنف قد يسبب إعاقات جسدية ونفسية للجنين.

إنّ التّأكيد التّام والدّائم على الأمور التي أثرتها هنا للنّقاش، لاسيما في الأسرة النواة الحقيقية والرئيسية في المجتمع، وضرورة وجود عيادات متخصصة لمثل هذه المواضيع لاسيما قبل الزواج، ولتكن زيارة تلك العيادات التّأهيلية ضرورية وملزمة، كما الفحص الطّبي قبل الزّواج، وذلك من أجل النّهوض بواقع الأسرة السّورية والزّوجين معاً من أجل حياة زوجية سعيدة وإنجاب آمن وصحي.

وكوني أنطلق دائماً من منهجية التّحليل النّفسي في معالجتي لأي أمر متصل بالنّفس النّسائية، لا بدّ من التّوضيح إلى أنّ خطاب التّحليل النّفسي هو: خطاب الواقع وخطاب الحاجات والرّغبات وخطاب النّطق بالعجز لتتم السّيطرة على هذا العجز من خلال الوعي.

لقد كان لكل من فرويد ولاكان طروحاتهما الخاصة المتصلة بموقع المرأة في الحياة كذات مستقلة في ارتباطها بالرجل. ونجد "جاك لاكان" قلما تطرق في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، إلى النقاش حول الأنوثة، ومن خلال عبارات قليلة يتطرق لوظيفة الأم في عُقد الأسرة (Lacan، 1938). وفي سنوات الخمسين يتعرّض للموضوع من خلال مصطلحات صيغت بمفاهيم يستقيها من كلود ليفي شتراوس، ويتم إدراك النساء (إنثروبولوجياً – ملاحظة المترجم) كموضوع مقايضة يتنقل بين مجموعات القرابة كدوالّ (Levi Strauss، 1949b): "المرأة في النظام الواقعي تُستخدم [...] كموضوع للمبادلات المطلوبة للبنى الأساسية للقرابة" (E، 207). يدّعي "لاكان" أنّ هذا الوضع الذي تُدفع فيه المرأة كي تُستخدَم كموضوع للتبادل، هو في الحقيقة مصدر الصعوبة في الموقع الأنثوي: "من وجهة نظرها هناك شيء ما، قاهر، أو لنقل لا يمكن الدفاع عنه، حقيقة أنها توضع في منزلة الموضوع داخل النظام الرمزيّ، الذي تنصاع له كما ينصاع الرجل"(S2:262).

تحليل لاكان لحالة "دورا" يُبرز هذه النقطة: الشيء الذي لا تستطيع دورا أن توافق عليه هو هذه المنزلة التي تضعها كموضوع تبادل بين والدها وبين السيد "ك" (Lacan، 1951a). وضعية المرأة في هذا الموقع كموضوع للتبادل تعني أنّ للمرأة "علاقة من درجة ثانية مع النظام الرمزيّ" (S2:262، يُنظر أيضاً: S4:95–96).

يضيف جاك لاكان في توضيح نظرته للمرأة إلى أنّه: لا يُشير مصطلح امرأة، إلى ماهية بيولوجية ما، وإنّما لموقع في النظام الرمزيّ، والمُساوي في المعنى لـ "الموقع الأنثويّ". ويدّعي لاكان أيضًا أنه "لا وجود لأيّة إمكانية لترميز جنس المرأة بحدّ ذاته" إذ إنه لا وجود لمقابل "للرمز الشائع بكثرة" لدى المرأة والذي يزوّده الفالوس (S3:176). إنعدام الموازاة في الترميز يؤدّي بالمرأة إلى المرور، في عقدة أوديب، عبر الطريق نفسه الذي يمرّ فيه الطفل، أي عبر التماثل مع الأب، ولكن الأمر أكثر تعقيداً لدى المرأة، إذ إنها مجبرة على استخدام تصوير (image) من الجنس الآخر لتكون قاعدة التماثل (S3:176).

يرجع لاكان في هذا السمينار إلى معادلته المثيرة للجدل من السمينار عام 1970-1971: "المرأة غير موجودة" (la femme nexiste pas Lacan 1973a:60)، والتي يعيد صياغتها ها هنا من جديد كـ "لا وجود لـ أل- مرأة" (S20:91،Lacan).

(il n`y pas La femme). وكما هو ظاهر في النص الفرنسي فإنّ لاكان لا يشكّك بوجود اسم العلم "امرأة" وإنّما بإمكانية تعريفها من خلال الـ التعريف. في الفرنسية يشير التعريف إلى التعميم، وهذا بالضبط ما ينقص النساء: "لا يمكن التعميم لدى النساء ولا حتى تحت التعميم الفالوسي"(1975b،Lacan). لهذا فإنّ لاكان يضع خطاً شاطباً على الـ التعريف كلما سبقت مصطلح femme، أي كما يفعل عندما يضعه على الحرف (A) لكي يخلق رمز الـ آخر المتشظّي، إذ إنه كما المرأة، كذلك الـ آخر غير موجود (يُنظر، خط الكسر). ولكي يؤكّد على الأمر فإنّه يتحدّث عن المرأة على أنها "ليست كلها" (S20:13،pas toute)؛ فعلى عكس الرجولة، وهي وظيفة كلية وتتأسّس بالخروج عن القاعدة الفالوسية (الخِصاء)، المرأة هي لا- كُلية (non-universal)، لا تتّسع لأيّ استثناء. تقارن المرأة هنا مع الحقيقة، إذ أنهما يشتركان بمنطق الـ "ليس الكل" (لا وجود لـ "كل النساء"، لا وجود لـ "كل الحقيقة") (1973a:64،Lacan).

يصرّح لاكان في عام 1975 بأنّ "المرأة هي عارض" (Lacan 1974-1975 Seminar 21-01-1975) ولمزيد من الدقّة: المرأة هي عارض لرَجُلٍ، بمعنى أنّها يمكن أن تدخل الاقتصاد النفسي للرجال فقط كموضوع هوام (a) بسبب الرغبة لديهم.

أصبحت ملاحظات لاكان بما يتعلق بالمرأة والجنسانية الأنثوية مثارَ جدل، ومحطّ انقسام في النظرية النسوية. النشيطات النسويات اختلفن حول السؤال، هل يجب إعتبار لاكان حليفاً أم عدواً لأهداف الحركة النسوية؟ يرى قسم منهن أنّ لديه توصيفًا حادّ النظرة للنظام الأبوي البطريركي، وأسلوباً لتحدّي المفاهيم المتحجّرة عن

الهويـة الجنسـانية (مـثلاً Mitchell، Rose). لكـنّ أخريـات يـريْنَ فـي مفهـوم النظـام الرمزيّ ضمانة لاستمرار البطريركية الأبوية على حالها، كمعطى عابر للتاريخ، كما أنّ الموقع المفضل الذي يمنحه للفالوس ما هو إلا تكرار لكُره النساء (Misogyny)، المزعومة لدى فرويد (مثلاً؛ Grosz،Gallop ;1982، 1990). لمزيد من الأمثلة والنقاش، يُنظر في Adams and Cowie، (1990) وBernnan، (1989) ولتفسير وشرح لاكان عن الجنسانية الأنثوية يُنظر Leader، (1996).

فإن كان هو الرأي العلمي لموقع المؤنث "المرأة" من منظور التحليل النفسي، بهذا القدر من الإشكال والتداخل والاندماج مع مواضيع عدة ولاسيما الجنس الآخر المذكر، يمكن الاستنتاج أنّ الفصل للمرأة قضية منفصلة عن الرجل أو عن مشاكل الحياة الإنسانية عامة ما هو إلّا تجزيء للنظر للمسائل المركزية برؤية مبتسرة تسطيحية لا تعطي الفهم الكامل للواقع بل تصور نماذج سالبة مرات، ومرات نماذج ناصعة القوة، مثلما هو واقع الحال في الحديث عن الرجولة ومشاكل الرجال...

كم نسمع عبارات مختلفة من مثل:

وراء كل امرأة حزينة: رجل.

وراء كل امرأة محبطة: رجل.

وراء كل امرأة مترملة: رجل.

وراء كل امرأة معلقة: رجل.

وراء كل امرأة مطلقة: رجل.

وراء كل امرأة مكسورة: رجل.

وراء كل امرأة مجنونة: رجل.

وراء كل امرأة تعاني من الاهتمام الهوسي بعمليات التّجميل: رجل.

وراء كل امرأة غير قادرة على استخراج بطاقة أحوال شخصية: رجل.

وراء كل امرأة ممنوعة من العمل: رجل.

وراء كل امرأة يائسة: رجل.

وراء كل مَن ينكر هذا الكلام: رجل.

ومع هذا، وراء كل رجل عظيم امرأة!

كيف تتحقق هذه المعادلة؟

وبكل تأكيد إنّ العبارات التي استعرضتها سابقاً، لا تعبر عن قناعتي بها، بل آثرتُ عرضها لأنّني سمعتها وقرأتها مرات لعلنا نتفكر في ثقافتنا الشفاهية المكرّسة والمعيقة للتغيير والتجديد في السلوك ليأتي متناسباً مع روح العصر...

لأجل كلّ ذلك أحببت وضع هذه النقاط أمام ناظرينا هنا لنتأملها، وحتى لا نحيّد أنفسنا ونقبل بتعذيب النفس كوننا مظلومين لنصل مرات إلى الاستمتاع بتعذيب النّفس لأن المرأة مضطهدة. هناك علاقة جدلية بين الجنسين، وظلم الرجل للمرأة لا شك ناشئ من حالة انسحاب لدور المرأة الاجتماعي الذي تكرَّس على مر السنين، ولموقع الرجل في المجتمعات المتأخرة التي تجعله ليس بأحسن حال من المرأة...

حيث إنّ تبعية المرأة للرجل في مجتمعاتنا العربية والمسلمة، بحكم وضع المرأة في المجتمع كتابع أزلي للرّجل حسب التشريع، وحسب الأعراف الاجتماعية، وأيضاً بحكم أنها ليست وليّة نفسها، وإنّما هي دائماً بحاجة لولاية ووصاية الرّجل عليها، مهما بلغت شأناً رفيعاً في المجتمع.

ما هو إلّا انعكاس لرؤية المشهد الاجتماعي بنظرة قاصرة على المعطى الجنسي، وليس على معطى الحضور الحضاري والثقافي للدور المنوط بالمرأة، إنّ للمرأة أدواراً من الحضور الناجح المستقل مشابهة للرجل في حالات كثيرة، ولكنّها لا يمكن أن تصل لدور الرّجل الواقف وراء الكثير من آهات المرأة كأم وأخت وزوجة وابنة وحبيبة وصديقة.

فعيش الدّيمقراطية في حياة الأشخاص، هو عيش الكرامة... الكرامة تعني: أن رأي الشّخص له قيمة، ومن لرأيه قيمة هو شخص محقق لذاته، وليس تابعاً، الديمقراطية تعني المواطنة، وبعد هذه المعاني وفرز الحقوق، تعيش المرأة كما الرجل، تقدير الذات...

الثورة لنيل مزايا سياسية، لا بدّ أن ترافقها ثورة تربويّة واجتماعيّة، كي تؤتي ثمارها، أن يسير هذان المحورين بشكل متوازٍ جنباً إلى جنب، لأن عيش الحريّات لابدّ أن يربى عليه ويؤسس بثقة من سنوات التّنشئة الأولى، لأجل ذلك لا بدّ من السّعي الحثيث لتأخذ المرأة دورها الاجتماعي المؤسس لكثير من المسارات المؤثرة في تطوير المجتمع.

فمازال مفهوم العذرية بمعناه النّفسي يعاش لدى فتياتنا، وكأنّه علامة الأب على جسد ابنته، وكذلك اسم الأب المحافظ عليه من قبل الأم والمدموغ بجسد البنت... وكأن جسد المرأة مكون من أجزاء ثقيلة مثبتة، لا تحتمل فقدانها لغشاء البكارة الذي هو مسؤول عن هذا الوضع... بحيث إن فقدان العذريّة عند المرأة يمثل لديها ضياع جوهرة ثمينة منها، وبدون هذه الجوهرة يصبح الجسد مادياً لا قيمة له، وغير طاهر وأي عملية تطهير تغدو مستحيلة، ويتحول الشعور بالذّنب عندها في حال فقدت عذريتها قبل الزواج، أو تعرضت لتحرش جنسي لم تخبر به أحد، فيتحول هذا الحدث الثقيل إلى مرض نفسي يلازمها، هذا ما نجده في العيادة النفسية بما يسمى الوساوس القهري المتصل بالنّظافة وحتى الوساوس المتصلة بهواجس فكرية حول الجنس وتبقى تعاني منه حتى تستطيع معالجته من خلال البوح، ووعي الحدث لتستطيع تخطيه، وينتظم في ذاكرتها بسياق زمني، وليس فقط مخبّأ ويثير خوفها أن تكشف تخبئتها لهذا الحدث...

إن هذا المرض منتشر كثيراً في بلادنا لدى النّساء ولدى الرجال أيضاً، ولكن تبقى نسبة النّساء أكثر بكثير كدلالة إحصائية على هذه الظّاهرة الاجتماعيّة المرضيّة.

كما أن الإنسان بطبعه يأنف التّكلم عن موضوع الجنس، فهو من المحرمات التي لا يلمح إليها إلّا من بعيد.. وتقابل إذا تم الحديث عنها بالقمع، اعتباراً أنّ الأخلاق المتعارف تنقضها... إن الفعل الجنسي بكل انحرافاته وشذوذاته شيء متعارف عليه منذ أقدم العصور. ولكن التكلم عنه بالذات هو فضيحة بحد ذاتها،

حتى مع المرضى، مرات نجد هذا الحرج والممانعة، الاسترسال في سرد الأفكار بعد التغلب على مثل هذه المقاومة يؤدي إلى انحلال هذا العارض وزواله فيما بعد... هذا ما تؤكده المتابعة العيادية...

فعندما يرتفع الضّغط الجنسي في الجسد إلى درجة ما، يخلق في النّفس رغبة جنسية... سماها "فرويد" مؤسس علم النّفس التّحليلي (الليبيدو).

فالحالات الجسدية الملازمة لهبات الخوف مثال اللهثة وخفقات القلب والعرق المتصبب والاحتقان، شبيه بما يحصل في حال العلاقة الجنسية (الجماع)، وهذه النّواة الجنسية هي مؤدى أو فكرة عن الكبت المسبب للضّغط النّفسي والتّوتر الانفعالي، الذي يقابل بعمل نفسي دفاعي يؤدي إلى كبت الرّغبة في حال كان، الإنسان بطبعه يأنف التّكلم عن موضوع الجنس، فهو من المحرمات التي لا يلمح إليها إلّا من بعيد... وتقابل بالقمع، إذا تم الحديث عنها، واعتبار الأخلاق المتعارف عليها بين مجموعة بشرية وأخرى بمنزلة...

إن الفعل الجنسي بكل انحرافاته وشذوذاته شيء متعارف عليه منذ أقدم العصور. "الاستثارة الجنسية" في جو غير آمن وجو قهري، وتؤدي إلى عيش الرّغبة في حال توافر الأمان واحترام الشّريكين للقاء الجسدي والنّفسي لكليهما هذه هي ثقافة التّجانس والتّزاوج التي يلزمنا العناية بها والتّرويج لعيشها بتراثنا الأخلاقي العريق...

يقول نزار قباني الشّاعر السّوري الدّمشقي الشّهير رحمه الله: "كلمة واحدة تجرحك... لا تمحوها ملايين الكلمات الجميلة"...

فما بالنا بالفعل المشين؟

إن صعوبة تأقلم الرّجل الشّرقي مع تطور العصر، والتّنازل عن حقوقه للمرأة، منشأ ذلك يأتي من خلال نظرة الرجل للمرأة، ومن مفهومه للذّكورة التي تتميز بنرجسية القضيب، فالمرأة بالنسبة إليه غرض يقتنيه، وليست ذاتاً يتعامل معه بالتّساوي، نجد الرّجل يدفع الزّوجة إلى مستوى القدسية (المرأة – الأم) فالأم ليست

مزاحمة ومنافسة للزّوجة فقط، إنّما تعلو بدرجات رغم علّو محبته لزوجته، وهناك الكثير من الحالات العيادية، ناجمة عن المنافسة الخاسرة نتيجة صراع ما بين الزّوجة والحماة، الرّجل يمارس سلطته على زوجته يفرض عليها الخضوع ولو كانت في بعض الأحيان بغير حق، فتنتقل من الوصاية الأبوية إلى الوصاية الزّوجية، لكي تديرها وتحدد مسلكها، فلذلك نجدها عرضة لكبت كلّ نزواتها خوفاً من أن تُلحق الإساءة بزوجها أو بأسرتها.

إن علاقة الرّجل مع المرأة، نراها تحافظ على موروثها التّقليدي، وتحول دون إعطائها الحريّة، بكاملها، لأن ثقافة التّعايش بين الجنسين، والتربية لتجريد العلاقة بين الطّرفين من الجنس، لم تطل بعد البنية النّفسية للرّجل الشّرقي، من هنا تبرز المشكلة المركزية، وبوادر التّخلص منها. من جراء توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل بأنّه يجب التّركيز على تنمية قواسم مشتركة، توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل، كالتّركيز على تنمية قواسم مشتركة متعددة، وليس الاكتفاء بالبعد الخاص بالذكورة والأنوثة، فقط بعد العلاقة الجنسية التي هي المطلب الكبير التي تحكم واقع العمل مع المرأة في بلادنا، والنّظرة العامة لتحررها.

إنّ كل النّظريات التي بنيت على أساس دونية المرأة، مستقاة من معتقد متخيل عبر التاريخ من أنّها كائن ينقصه عضو، فالعنصرية التي يعاني منها المجتمع الإنساني بدأت أولاً، وفتحت الطريق فيما هي ناجمة عن التمييز العنصري الذي طال الإنسان منذ أن اكتشف الفارق الجنسي بين الرجل والأنثى، فهذا الفارق تعمم على كل ما هو مغاير، لينتقل من الجسد في تكوينه الداخلي إلى لون الجلد الخارجي، إلى الفكر على صعيد اختلاف المعتقد، ثم إلى الاختلاف الإيديولوجي.

كما أن أسوأ أنواع القهر، هو القهر المتمثل في إخماد الكلمات في الصّدور، مما يولّد كبت لذة الكلمة، وسحرها بأن نؤثر بها بمن حولنا، ونقطف ثمارها... الباحثة النفسية "نوال السّعدواي" والنّاشطة السياسية المصرية البارزة منذ سنين، تقول السّعداوي: "قهر المرأة في بيتها، هو العائق الأساسي أمام مشاركتها في الحياة

السياسية"... هذا القهر في بيت الزوجية، وحتى في بيت الأب، يتجلى بعدم مشاركة المرأة في القرارات المتصلة بها، بدءاً من إكمال الدراسة أو اختيار الزوج وتربية الأولاد وتغيير السكن، هذه الحالة تُعاش عند نسبة ليست بالقليلة في بلادنا، وهذه الأساليب في إقصاء المرأة تكرّس تبعيتها، بحيث يصبح حالها كمن (لا حسّ لها ولا خبر) وتبعاً لالتزامها بذلك تصنف بالتهذيب، والطّاعة والرّضا، حيث فعاليتها يجب أن تنحصر، بما يروق للرجل.

إنّ العلاقة الهامشية بين الرجل والمرأة داخل البيت تجعل للمرأة وضعاً خاصاً مهمشاً؛ لأنها تفقد صفتها الإنسانية. من خلال السّلبية وغياب المبادرة والعزلة التي يتم تحميل مسؤوليتها، للتّركيب العضوي للمرأة كونه أضعف في بنيته مما لدى الرجل، ولكن واقع الحال أن هذا التّمييز لصالح الرجل وعلى حساب الأنثى، ما هو إلّا التعبير عن وضع اجتماعي وثقافي معين مبني على مفاهيم خاطئة للتّنظيم الجنسي القضيبي، المسجل في اللاوعي لأجيال سابقة يراكم مكبوتات عديدة حول دونية المرأة، أما آن الأوان لهذه الأفكار المكبوتة أن تأخذ طريقها إلى النور، وتفسح عن فراغات للعقل والوجدان أن ينضجا عند كلا الجنسين، وإن كان الرجل متنفذاً بسلطته القمعية على المرأة في عموم بلادنا، إلّا أنّه لمنَ المؤكد أنّ الحياة مع شخص مقهور لن تكون رحبة ومفعمة بالمعنويات والتّعاضد لإنجاح المشاريع المشتركة بين الجنسين وأهمها التنشئة الاجتماعية للأبناء مواطني المستقبل لأي بلد...

لذا البدء والمنتهى لا بدّ أن يكون من هنا، حسب رأي الشّيخ الأكبر "محي الدين ابن عربي": المرأة أصل الكون.

أما مهمة التّحليل النّفسي فيأتي بتحقيق تباعد مع الأصل بتجريد الذّاكرة من مخزون الطّفولة المكبوت، بهدف التّكيف مع معطيات العصر الجديد بآليات فكرية متماسكة منطقية، لا أن يعيش المرء أحداث العالم المعاصر بأفكار قديمة واهمة يعوزها البناء العلمي، حيث لا يمكن لأية قوة أن تعيد الزمن إلى الوراء، فالرغبة بالحرية بكافة أنواعها والرّغبة بالعيش بألق جديد للحياة، هما ما سيرسم ويبني

الهوية الجنسية السّوية... حيث إن للكلام أهمية في تحديد الفارق الجنسي، فالمرأة والرجل، لكل منهما رد فعل مختلف تجاه الكلام...

يأتي سحر الكلمة من الصّوت الذي يشكلها والمعنى الذي ينسب إليها، فهما يؤثران معاً في الانفعالات التي تستقبلها، الكلمة أقوى من حدّ السيف... ولما كانت الحركات هي كلمات الجسد، فالكلمات هي حركات الشعور، حتماً تغيير المفاهيم له نتائجه على السلوكيات المتصلة بهذه المفاهيم... فكل سلوك مدفوع بدافع ودوافعنا ليست فقط غريزية، بل حتى الحضارة تحدّ من الغريزة وتهذبها...

وسحر الكلمة وموسيقا الصوت عاملان مشتركان بين المرأة والرجل... وبالتالي لهما ذات الصدى بين كليهما، لكن الفارق بينهما أن الرجل يعلن موقفاً كي يداري ضعفه أمام سحر الجمال؛ فيما المرأة تداريه وتخشى من البوح به، لتكن الإشكالية موجودة لدى الطرفين إنّما ردات الفعل مختلفة...

إنّ اتخاذ القرارات السّليمة والفاعلة، والتي يرتجى منها أن تكون مساهمة في تنفيذ قرارات التّغيير المتصلة بواقع المرأة المجحف والمسيء لإنسانيتها، وبالتّالي لأسرتها وبالأخص أبنائها، لذلك ينتظر من العمل السياسي في بلادنا بما يتصل بقضايا المرأة، أن تكون حركةً وكلمةً وصوتاً وانفعالاً وتفكيراً حراً ومباشراً والبنية الذهنية الراهنة هي نقيض ذلك تماماً كما نعلم جميعاً.

إنّ العمل السياسي يتطلّب قناعة ونقداً حراً وذاتياً وإرجاع أثر للآخر مما يعني نقداً له، الفترة الراهنة هي فترة تاريخية في صنع الحدث السياسي بموجب ذهنية فاعلة وايجابية، وبمنطق تشاركي للبناء لكلا الجنسين، حيث لا يمكن للعمل السياسي أن يقوم بالمرتجى منه لبناء أمه منهارة في كل مفاصل الحياة، أن تأخذ بتماسكها إلّا بمشاركة للمرأة النفسيّة للاحتواء والعطاء والتّسامح من حيث مقدرتها على درء العنف الذي تراكم والذي لا بدّ أن يؤدي إلى إعاقة الإنتاج، واستنزاف طاقات المجتمع بصورة كبيرة لسنيين طويلة، إن لم تأخذ المرأة مكانها الصّحيح في قلب المعادلة السياسية، لتكون جنباً إلى جنب مع الرجل وفق قواعد اللعبة

الدّيمقراطية المؤثرة في تحرير الطاقات والانفتاح على الآخر مع ثقافة تحمل مسؤولية الاختيار.

ما يلزم تفعيله في الحياة السياسية لسورية الجديدة من وجهة نظر خاصة بما يتصل بالمرأة، وانطلاقاً من منظور نفسي اجتماعي لبنية المرأة النفسية والمعرفة بالظروف التي شكلت بنيتها هذه:

إقامة ورشة عمل شاملة في مجال تغيير التّصورات الذّهنية والقيمية في اتجاه العدالة الاجتماعية، وفي التّخطيط والتّغيير والتّحفيز، وذلك من خلال الاستناد على القدرات والمهارات بشكل دائم التّغيير بما ينسجم مع قواعد الطّبيعة الثانية، من خصوصية تكوين المرأة والرجل البنيوية البيولوجية، والنّفس اجتماعية في إطار التكامل والتنوع، من حيث إن المطلوب اليوم، هو تحقق الأمن العسكري في بلادنا وجنباً إلى جنب مع تحقق الأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي.

والأمن النّفساني بطبيعة الحال حاضر في كل مفاصل أبعاد الأمن تلك من كونها تدخل في نطاق الأمن العام للبلد الذي حلمنا بأن نجده رحباً يتسع للجميع، وتتحقق العدالة الاجتماعية لكل أفراده بغض النظر عن جنسهم أو عرقهم أو حتى انتمائهم السياسي ليجتمع الكل على محبة البلد وبنائه ، فلأجل ذلك قُدمت التّضحيات.

وهنا يلزم الإشارة إلى أنّ يسير تلازم العمل على تطوير العلاقة بين الشخصية المرضية والسّلوك الاجرامي، حيث إن الشخصية المرضية المقهورة تنتج بعد فترة سلوكاً غير سوي يهدئ الأمن الفردي والأمن الجماعي، وبذلك لا بدّ من التّصدي لذلك بهدف علاجه إن وجد، أو الوقاية منه قبل حدوثه، وذلك عن طريق برامج إعادة التأهيل، وأجد مسؤوليتي تجاه قضايا بلدي كنفسانية مهتمة بالشّأن العام أن ألفت النّظر والعناية إلى ضرورة العمل على فلسفة جديدة في الرّعاية الاجتماعية، لتبديد السّلوك العنيف والعنف الرمزي من خلال فك رموزه ومعانيه، من خلال التّفاعل التام بين كل الفرقاء المؤثرين على الواقع الاجتماعي، للعمل

ضمن دينامية الجماعة للإسهام في تثبيت مفاهيم الأمان والانتماء المُركز، والدّور الأساس لتوكيد الذات والتّفاعل والعلاقات التّبادلية السّليمة بين كلا الجنسين في فترة إعادة التأهيل لبنى مجتمعنا التي أصابها العطب..

حيث إن لعبة الضّعف، والقوة باتت فلسفة اجتماعية اليوم وهي تكريس للضحايا وإبراز الضّعف في القوة أو قوة الضعف في مقابل قانون السلطة، وسلطة القانون الجائر الممارس على كلا الجنسين من جراء الاعتقالات، والإقصاءات لدورهما الاجتماعي في الحياة العامة، كل وفق مواهبه وطاقاته...

إن قوة الضّعيف غالباً ما تكون أقوى من سلطة القوي، وهنا تكمن إرادة التّغيير وإرادة التّطوير، التي تسهم بصورة كبيرة بتغيير البنى الذّهنية في حال وجودها وعيشها. ولكي تؤتي الجهود ثمارها نحو المسار الدّيمقراطي فإن ما يلزم في بلادنا اليوم، هو العمل النّفسي الاجتماعي بأطر سياسية واضحة، بحيث ينطلق بدفع تحقيق هذه الأهداف...